المواطن ZERO

(أسطورة: حافظ مش فاهم)

محمود الغول

المواطن ZERO

المؤلف : محمود الغول

تصميم الغلاف : أحمد بلال

الطبعة الأولى : يناير 2019
رقم الإيداع : 2019\3567
الترقيم الدولي : 978-977-769-252-6

جميع حقوق الطبع محفوظه

الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 4 شارع محمد مظلوم -
من صبري أبوعلم - عمارة
أنور وجدي - الدور الثاني - مكتب 25
م : 01010490247
ت : 0223963002 (2+)

أما قبل

يقدر العلماء عمر الأرض ـ كوكبنا الحبيب ـ بملايين السنين، وكذا يقدرون عمر الإنسان بآلاف السنين، ومنذ خلق الله الأرض وأنزل عليها آدم وإلى اليوم (وربما ليوم الدين)، يتنوع البشر وتتعدد صفاتهم، لكن أحدهم لم يتغير ولم يتبدل، آلا أدلكم عليه.. إنه المواطن «**zero**»..

والمواطن «**zero**» هو ذلك المواطن الصفري، الذي لا يدري هو ذات نفسه من أمره شيئًا، أو كما يقال «لا يهش ولا ينش» إلا مع الجموع..

يميل للعيش في جماعات فكرية، حيث يرتدي الأفكار كما ينتعل الأحذية.. فللصيف حذاء وللشتاء آخر.. كذا هي آراؤه وأفكاره ينتعل في رأسه – إن كان له رأس – ما يُمليه عليه من يحيطون به..

هو مواطن تحبه الدولة والنظام والجماعة والقطيع.. إن تسأله في مسألة لا يجيبك في ساعتها، فلا بد له من مرجعية يستمد منها رأيه ورده وموقفه وتوجهه..

وحاشا لله أن يستخدم تلك التلافيف المكورة في أم رأسه، فعقله بحالة

الفابريقة لم يُستخدم بعد، تمامًا مثل موبايل بحالة ضبط المصنع، لم يلعب صاحبه في «الإعدادات» ولم يضبطه يومًا على وضع الطيران..

ففي أي مسألة أو قضية مثارة (لا أقصد إثارة والعياذ بالله) إن قال الجميع (هذا أمر حرام) أمن على الكلام.. وإن قالوا إن الأمر ذاته حلال صرخ ثانية: آمين..

مواطننا الصفر محبوب طيوب دبدوب لا يرهق نفسه بالتفكير، ولماذا يفكر والعياذ بالله وهناك من ينوب عنه في هكذا أمور!

يؤمن المواطن «zero» أن كل ما يصدر عن الجموع هو الصواب بعينه، وأن أي تفكير خارج الصندوق – حتى وإن كان صندوق البريد – هو أمر مُشين، ويستحق الاحتقار أو الاحتكار فلا فرق لديه بين المعنيين..

ولعله من الملاحظ أن المواطن الصفري المستكين يبلغ في درجة إيمانه وتسلميه ــ بكل ما يقوله للجميع ــ درجة عالية ربما أعلى من برج خليفة، وهو ما يجعل تلك الجموع هي عينه التي يرى بها، وقلبه الذي يحب ويكره، وأذنه التي يسمع بها، ولسانه الذي ينطق به!

هذا المواطن المثالي هو الذي إذ قيل له إن الكاتب الفلاني «كافر» بما آمن به آباؤنا وأجدادنا، شحذ سكينه لينحر عنق ذلك الآثم، رغم أنه يومًا لم يقرأ له حرفًا..

هذا المواطن المثالي هو الذي إذ قيل له إن الكتاب الفلاني يحمل أفكارًا لا تناسب مجتمعنا المحافظ، أشعل نارًا لحرق الأفكار حتى وإن لم يكن قد اطلع على شيء منها..

عزيزي المواطن «zero» ربما أطلت عليك، لكن بحق الجموع سامحني واغفر لي، واعتبرني كعقلك الذي في رأسك.. اعتبرني عضوًا زائدًا عن حاجتك، ومع ذلك تتركه في مكانه إلى أن يمر بائع «الروبابيكيا»، لكن لا تنسى أن تخبر البائع أن عقلك بحالة الـ«zero» لم يستخدم بعد، وفي رواية أخرى «بكيسه».

في هذا الكتاب أدعوك عزيزي المواطن ZERO إلى رحلة بلا عودة، فاربط الحزام لننطلق..

يوم ما اطاهرت

كنت في الخامسة أو ما يزيد قليلًا، حين لفحتني أمي على كتفها، ومضت تقطع الطريق خطوة وراء خطوة في الأزقة ثم المدقات الترابية، إلى أن وصلت إلى الترعة التي تفصل بين قريتنا والقرية المجاورة، فسرتُ معها وأنا أستمع لزئير صدرها، وفجأة توقفت أمام بيت متهالك، ونادت:

- عم هاشم.. يا عم هاشم.
- تعال ياللي بره.
- العواف.
- الله يعافيكي يا أم حافظ.

أنزلتني أمي من على كتفها، ورمتني في حجر «هاشم»، وهو حلاق هذه القرية والقرى المجاورة.. نظره ضعيف، والناس تتداول حكايته وحوادثه، كم من شحمة أذن طالها مقصه الصدئ، وكم من قفا جُرِح جراء لطشات موسه «التلم».

رمتني أمي للرجل وقالت:

- الأمانة.

- اللهم صلي على النبي.

هكذا صاح الرجل، وهو يتفحص ذكري بعدما رفع جلبابي الأبيض، وأردف:

- والله وكبرت يا مفعوص!

تساقطت دمعات من عيني، وارتعشتُ حين هتك الرجل العجوز ستري.. لامس ذكري هكذا أمام الناس، وكأنه يُعاين جاموسة عِشار، أو يتفحص بيضة في مؤخرة فرخة!

لم يعبأ أحد ببكائي، وراح هاشم يجز شعر رأسي فأتى عليه، إلا مقدمته، وعرفت في ما بعد أن هذه القصة تسمى «كوريك»، وتُحلق للطفل قُبيل أن تُجرى له أول عملية جراحية في حياته.. الطهارة.

كنا في بداية الثمانينيات من القرن الماضي، بعد تولي حسني مبارك حكم مصر.

وقتئذ كانت عملية الختان تؤجل في قريتنا إلى أن يصير الرضيع طفلًا بين الرابعة والخامسة من عمره، أما البنات فيُبتر جزء من تلك المنطقة الحساسة لديهن ربما وهن في العاشرة.

أتذكر فتى اسمه جمال حين بلغ السابعة عشر وأراد أبيه أن يزوجه، اضطروا لتأجيل الفرح شهرًا كاملًا لأنهم اكتشفوا أنه ما زال بـ«الغلافة».. لم تُجر له عملية الطهارة!

بعد أن انتهى الأسطى هاشم من حلاقة شعري عهدني إلى شاب يجلس

إلى جواره، فسيطر هذا الأخير عليَّ تمامًا؛ عقد ذراعي خلف ظهري وباعد بين رجلي، وبينما كنتُ مصدومًا من صمت أمي إزاء هذا الانتهاك الذي يطالني، تناول الحلاق ريشة انتزعت من ذكر بط، ووضعها في ذكري، ثم استل موسًا لامعًا وأنقض عليَّ.

سالت الدماء، بينما كنتُ شبه فاقدًا للوعي، إذ لم يكن هناك مخدر لمثل هذه العمليات «البسيطة»، في وقت أطلقت أمي فيه الزغاريد، وكأن نصرًا عظيمًا قد تم.

عادت بي أمي بعدما طهر الحلاق جرحي، وأوصاها بتغيير قطعة الشاش المغموسة في الميكركروم المختلط بدمائي يومًا بعد آخر.

في البيت، وزعت أكواب الشربات على الناس الذين جاءوا مهنئين، وبعضهم دس في يد أمي عملات ورقية، على سبيل النقوط..

الناس ينقطون بعضهم البعض في غير مناسبة، إذا تزوج أحدهم أو مات آخر، وفي الطهور وبعد ظهور نتائج امتحانات آخر العام الدراسي ونجاح الأبناء.. لا أحد يعرف الهدايا والتهادي، فالكل محتاج، وليس هناك أفضل من المال ليتهادى به الأهل والأصدقاء والجيران، ومع ذلك يتهادى سكان القرية ببعض الأشياء البسيطة، فهذه ترسل لجارتها طبقًا به طبيخ أورديحي، وترده تلك بمثله أو أحسن منه مشمولًا بقطعتي لحم أو ورك دجاجة.

رغم حزني لفقد جزء من جسدي وصدمتي من تلك المكيدة التي دبرتها لي أمي الحبيبة، فإنني كنت محظوظًا، إذ كُتب لي أن أتغذى «زفر» لثلاث ليال متتاليات.

- الواد محتاج يتقوت.

هكذا قالت أمي لأبي الغاضب، قبل أن تذبح ديكًا عظيم الشأن بهي الألوان، آل لي وحدي مع المرق.

في اليوم الثالث، حين كانت والدتي «تغير لي على الجرح»، سألتها:

- يوما ، ليه عملتي في حافظ كده؟ هنُت عليكي يا يوما!

- عيب يا واد.. بطل أسئلتك دي..

وفي المساء سمعت أمي تهمس لأبي:

- تصدق الواد قليل الأدب بيسأل إحنا عملنا فيه كده ليه!

- جيل تلفان مايعرفش الخشا ولا الحيا.. أنتِ السبب دلعتيه زيادة عن اللزوم.

- أنا! طب وأنا مالي يا أبو حافظ.

- ملة على جنابك.. العيل اللي يسأل كتير ده يبقى فقري ووشه نحس..

وهو أنا كنت أجرؤ أقول بم، لو حتى قطعوا من جسمي نساير نساير..

- معلش ربنا يهدي.

في اليوم الرابع بدأت أتمشى قرب دارنا وأنا أباعد بين فخذاي، ومع ذلك لم يكن الأمر يسلم من احتكاك بين الفخذين، ينخلع له قلبي حين يُعتصر الجرح بينهما، أصرخ، فيضحك الصبية.

بدأت أتعافى رويدًا رويدا، غير أن تصويبة من كرة شراب ثقيلة وصلبة مثل حجر أصابت جرحي، فأحسست بروحي تغادر جسدي وغاب عني وعيي.

فيِ الكُتّاب

قليل من أبناء القرية يذهب إلى كُتاب الشيخ حسن، قبل التحاقه بالصف الأول الابتدائي.

الكتاب ينعقد في مصطبة (دار مناسبات) إحدى العائلات الكبيرة، حيث يجلس الشيخ الكفيف وإلى جواره رأفت، ذلك الشاب الذي لا يُجيد شيئًا في الدنيا سوى تناول الطعام طوال الوقت والإمساك بالصغار حتى يتمكن الشيخ الضرير من «عبطهم» على مؤخراتهم جزاءً لعدم حفظهم آيات وسور القرآن.

في الثلاثة أشهر التي تسبق الالتحاق بالمدرسة، كان الواحد منا يذهب للكُتاب كي يحفظ قصار السور على يدي الشيخ حسن، الذي لا أعرف أين تعلم القرآن وعلومه، فقد كان صوته أجش، مزعجًا، وينطق كلمات القرآن كل مرة بطريقة مختلفة عن سابقتها، ولم يكن يعلم من أصول القواعد والنحو – وهذا ما اكتشفته فيما بعد – سوى أن المبتدأ مرفوع والخبر منصوب، ومع ذلك لم يكن عصيًا عليه نصب المبتدأ أو كسره!

كان الشيخ حسن سيد نفسه، لا يهتم لأمر هؤلاء الذين طالما حذروه

من تحفيظ القرآن وهو لا يعرف شيئًا من علومه مثل أحكام التجويد أو التفسير..

في يومي الأول بالكتاب، وكنت حينئذ في الخامسة من عمري، وضعت الكتيب الصغير الذي يحوي «جزء عم» على ورق الكرتون الذي نجلس عليه، وهممت واقفًا كي أغمس الكوز المعدني في بطن الزير لأغترف بعض الماء لأروي ظمأي، لكن فجأة صرخ رأفت – مساعد الشيخ حسن – قائلًا:

– الحق يا مولانا، الواد حافظ رمى القرآن على الأرض..

– هات الكافر ابن الكافر ده قدامي.

هجم عليَّ رأفت وضمني إلى صدره، فشَّل حركتي وأوقفني كخروف ينتظر الذبح، وظهري مواجهًا للشيخ الذي أخذ يضربني بعصاته فألهب مؤخرتي لا سامحه الله.

صرختُ باكيًا:

– معلش يا مولانا.. سامحني والنبي..

– وأنت تعرف النبي يا كافر يا ابن الكافر!

– أنا أبويا مش كافر..

– وكمان بتقاوح يا كلب يا بن الكلب..

ضاعف الشيخ الضرير حصتي من «العبط» على المؤخرة إكرامًا لقلة أدبي، وقال كلامًا لا أتذكر منه سوى أنني لن أصلح للحفظ، طالما أنني مشاكس، وأرسل لأبي يخبره أنني «عيل قليل الأدب» أرفع صوتي في وجه الشيخ!

وعندما علم أبي بشكوى الشيخ انهال عليَّ ضربًا، وفي اليوم التالي أرسل معي «عد بيض» أي أربع بيضات، وأوصأني أن أقدم اعتذاري للشيخ حسن، وأن أحلف له بأغلظ الأيمان أنني لن أكرر فعلتي، ولما سألت أبي عن أي فعلة يتحدث؟ نهرني وقال لي:

- اعمل اللي بقولك عليه من سكات.

- طيب يا أبا ما أنا مش عارف هو إيه اللي حصل، وخايف أعمله تاني يقوم الشيخ يضربني!

- يا واد يا بن الكلب اعمل اللي بقولك عليه وماتتعبش قلبي ربنا ياخدك.

ذهبت للشيخ وأعطيته البيضات، فلما تحسسها سُر في وجهه الرضا، ولما تعهدت بعدم تكرار فعلتي التي لا أعرف ما هي، تبسم ورفع وجهه للسماء قائلا إنني ربما ينصلح حالي.

جلست بين أقراني وبدأ الدرس..

راح الشيخ يكرر علينا أول آيتين من سورة الإخلاص مرة واثنتان وثلاث، قبل أن يتوقف حين همس في أذنه رأفت ببضع كلمات، فناداني الرجل الضرير:

- قوم ياض يا حافظ.

- نعم يا مولانا.

- أنت مابتقراش زي باقي العيال ليه؟

- أصلي أنا حافظ.

– طب ما أنا عارف أنك حافظ، هو قلت محمد ولا علي..

هنا ضج الجميع بالضحك، فصاح الشيخ:

– اخرس يا حمار أنت وهو.. وأنت يا ولا، اعمل اللي أقولك عليه من سكات يا بن الصرمة..

– لكن يا مولانا أنت حفظتنا السورة دي إمبارح وأنا حفظتها.. اسمعهالك؟

– أيوه سمع ياخويا..

قرأت السورة كاملة، فدعاني الشيخ لاقترب منه، فظننت أنه سيكافأني، غير أنه باغتني بضربة من عصاته كادت تفقأ عيني.

– الله! ليه كده يا مولانا.

– علشان ماتبقاش تسبق زمايلك.. أنت تحفظ اللي أنا أقولك عليه وبس، ولو حافظ سور تانية تنساها.. اعمل نفسك مش حافظها.. يلا قول وريا «قل هو الله أحد.. الله الصمد..»

– طب هو يعني إيه «الصمد» يا سيدنا؟

– مالكش دعوة.. قول اللي تسمعه وبس.

انقضت الأشهر الثلاثة لم أحفظ فيها سوى خمس سور قصيرة، بينما كنت أحفظ إحدى عشرة سورة كاملة قبل التحاقي بكتاب الشيخ حسن- كنت قد حفظتها من كثرة ما سمعتها من جارنا «علي» الذي يكبرني بنحو خمسة أعوام، إذ اعتاد أن يجلس بعد صلاة الفجر أمام منزل أسرته ليسترجع ما حفظه من القرآن على يد خاله «محمود» الذي يسكن مدينة حلوان القريبة.

حفلات الضرب الجماعي

لا تمثل لي الطفولة تلك الذكريات السعيدة التي يتبادلها المسنون حين يلتقون، ويجترون تاريخهم البعيد، فليس هناك ما يسر قلبي حين أتذكر السنوات الأولى من عمري، حتى المدرسة.. هذه الكلمة كلما قالها أحد أمامي أو قرأتها مكتوبة أشعر بمرارة في حلقي ووهن في جسدي..

ولِمَ لا وكل ما أتذكره من سنة أولى ابتدائي تلك العلقة السخنة التي شارك فيها كل تلاميذ المدرسة في أول يوم دراسي، فقد نظمونا في طوابير بحسب الصف الدراسي، ثم هلَّ علينا رجل عظيم الكرش بلحية كثة.. اسمه الأستاذ رجب.. فأخذ يُقرعنا بعصاته التي تشبه إيد الهون على ظهور أيدينا..

كانت صدمتي لا تُوصف، فهذا أول يوم لي بالمدرسة، ولم أقترف أي خطأ أستحق عليه العقاب، وحتى إذا كنت قد ارتكبت خطأً دون عمد، فهل فعل كل التلاميذ الشيء نفسه!

ربما لم يخرجني من صدمتي هذه.. صدمة الضرب الجماعي دون سبب.. سوى صدمة أخرى، حين وجدت الأطفال من حولي في الصفوف الأخرى

يتلقون نصيبهم من الضرب، ثم سرعان ما يُطلقون ضحكاتهم رغم حمرة وجوههم المنتفخة من أثر كتمان أنفاسهم وهم يُضربون..

يبدو أنهم كانوا يستملحون الأمر، وربما اعتادوا على ذلك خلال سنواتهم السابقة.. اعتادوا أن يلعبوا دور «المعازيم» في حفلات الضرب الجماعي المصحوبة بالسباب والشتائم من عينة «افتح إيدك كويس يا بن الكلب».

كم هو قاسٍ أن تتلقى عقابًا لخطأ لم تقترفه.. لكن الأشد قسوة هو أن تجهل سبب العقاب، فالأستاذ رجب لم تكن لديه أسباب لضرب كل تلاميذ المدرسة من الصف الأول حتى السادس، حتى أنا ليس لديَّ مبرر للأمر رغم انشغالي به حتى اليوم، وربما - وهذا مجرد تخمين - أن ما فعله الأستاذ رجب في أول يوم لي بالمدرسة، ثم تكرر مع بداية كل عام دراسي حتى أنهيت المرحلة الابتدائية، ليس سوى «ضربة استباقية» أو إجراء روتيني حتى يتعظ التلاميذ فيحرصون على ألا يرتكبوا أي خطأ مستقبلًا.. ومن ناحية أخرى ربما يقصد الأستاذ رجب بهذا الإجراء أن يصنع لنفسه هيبة بين التلاميذ، فلا يفكر أحدهم في أن يرفع عينيه في عين هذا المعلم الفاضل.

الغريب أن السنوات التالية لي بالمدرسة، ومع بداية كل عام دراسي، كنت أتلقى وأقراني العلقة نفسها، غير أني اعتدت الأمر..

ففي السنة الثانية الابتدائية هلَّ علينا الأستاذ رجب وبدأ في ضرب التلاميذ، ثم جاء الدور عليَّ فمنحني بكرم بالغ ثلاث ضربات مشبعات على ظهر يدي اليمنى، ورغم شدة الألم، فإنني تقبلتُ الأمر، ولم أبكِ مثلما

حدث في العام الأول.. فقط كتمت أنفاسي واحمر وجهي ونفرت عروقي الصغيرة في رقبتي التي تزرقت.

أما في الأعوام التالية، فاختلف الأمر تمامًا، إذ أصبح رد فعلي مماثلًا لهؤلاء الذين سبقوني، فقد فوجئت في سنة ثالثة أنني أتلقى تلك العلقة الساخنة – غير المُسببة – بضحكات سخيفة لا أعرف مُبررها حتى اليوم.

وقطعًا لن أحكي لكم عن رد فعلي في الأعوام التالية، حين كان الأستاذ رجب – رحمه الله – يمارس شذوذه هذا معنا.. عذرًا لا يُسيء أحدكم فهمي، فأنا أقصد بشذوذه معنا ذلك الضرب الجماعي غير المبرر.

جدول الضرب

قد لا يمثل الضرب في حد ذاته إهانة بالنسبة لنا حين كنا تلاميذ، غير أنني شخصيًا كنت أنزعج بشدة عندما يضربني أحد المعلمين أمام «ميرفت».. فهذه الحسناء البيضاء الطويلة ـــ يمكنكم أن تطلقوا عليها حبي الأول.. ذلك الحب الساذج أو بالأحرى الإعجاب الطفولي، فقد وجدتني مشدودًا إلى ميرفت فقط، لأنها بيضاء وطويلة كما الأوزة..

نعود لأمر الضرب، ففي أحد أيام شهر أكتوبر الذي كان أحد شهور الشتاء في هذا الوقت – لا أعرف لماذا بات صيفًا في أيامنا هذه – وكانت حصة حساب، أمرني الأستاذ رشدي بالوقوف ثم سألني:

– خمسة في ستة بكام؟

سكتُ برهة وحسبتُ الحسبة على أصابع يدي ثم أجبت:

– 30 يا أستاذ..

لم أكد أنطق آخر كلمة «أستاذ» حتى وجدت الرجل ينهال عليَّ ضربًا.

وللغرابة، لم أفكر في شيء ساعتها سوى «منظري» أمام ميرفت، فيكف ستحترمني هي حين أتزوجها – كده خبط لزق – عندما نكبر،

وهي تراني أُهان أمامها!

باغتني المعلم بسؤال غريب:

– أنت كنت بتعمل إيه بصوابعك قبل ما تجاوب على السؤال؟

– والمصحف يا أستاذ كنت بحسب خمسة في ستة..

– بتحسب؟ لأ يا حبيبي.. مفيش حاجة اسمها بحسب.. لما أسأل في جدول الضرب تجاوب ع طول.. لازم تحفظ الجدول كله.. أنت حافظ ولا مش حافظ؟

– حافظ يا أستاذ.

– طيب سمع..

– أسمع إيه؟

– أنت مش بتقول حافظ يا غبي..

– لا ماقصدش أني حافظ الجدول، أنا اسمي حافظ..

– لا ظريف.. طب خدلك بقى كام عصاية علشان خفة دمك دي..

انهمر التلاميذ في الضحك والأستاذ «يُلسوع» جسدي، حتى ميرفت لمحتها تضحك رغم كف يدها الرقيق الذي وضعته على فمها.. وهنا قررت أن أُنهي قصة الحب هذه، التي لم تبدأ بعد!

أجلسني الأستاذ، ثم ألقى علينا خطبة عصماء عن فوائد الحفظ، قال فيها إن جدول الضرب مثل أشياء كثيرة في حياتنا، يجب أن نَحفظه مثل أسمائنا، ووصانا بعدم اللجوء إلى طريقة العد على الأصابع أو حتى تخيل الأرقام مثل ثمرات البرتقال.. وتساءل «لماذا نُجهد عقولنا في مثل هذه

الأشياء التي حسمها السابقون، وحسبوها هم، ثم جهزوها لنا لنأخذها عنهم دون تفكير.. لماذا؟».

جاهدت كثيرًا خلال الأيام التالية لهذه الواقعة، فحفظتُ جدول الضرب من «واحد في واحد» حتى «إتناشر في إتناشر».. ومع ذلك كانت لي هنات، إذ كنت أخلط ما بين نواتج عمليات الضرب خصوصًا في أرقام (6 و7 و8)..

والأغرب من ذلك أنني كنت أحفظ الجدول بالترتيب، فمثلًا لو سألتني ما ناتج عملية ضرب «ستة في سبعة» لأجبتك في لمح البصر أنه يساوي «إتنين وأربعين»، أما إذ عكست السؤال وطلبت مني إيجاد ناتج عملية ضرب «سبعة في ستة»، فحتمًا كنت سأقع في حيص بيص، ويتعرق جبيني، حتى يمكنني إقناع عقلي أن العمليتين متساويتان، وأنه لا فرق بين ناتج «تمانية في خمسة» وناتج «خمسة في تمانية»..

الحب وسنينه

من طرائف سنوات الدراسة في المرحلة الابتدائية، أنني كنت أتعلق بإحدى الفتيات مع بداية كل عام دراسي، فقد أنهيتُ قصة حبي الأولى مع ميرفت حين رأيتها تضحك وهي تشاهد الأستاذ رشدي يضربني بالعصاة، لكنني سرعان ما استعدتُ شهيتي للحب في العام التالي، وكانت بطلة هذه القصة هي هناء ابنة شقيق ناظر المدرسة..

وقبل أن أحكي لكم قصتي مع هناء، أود أن أذكر لكم حقيقة علمية وهي أن البنات في قريتنا لا فرق بينهن وبين الصبيان في شيء ظاهري.. فالبنت مثل الولد في الشكل، ولا يمكنك تمييز منى عن سالم مثلًا.. وربما يقول قائل إن هناك ما يشبه الشارب يخط أسفل أنف أحدهم، لكنك ستعجب حين تعرف أن هذا الشارب يميز وجوه الفتيات المشعرات وليس الصبيان، فالفتيات في بلدنا «يفورن» مبكرًا، ومع ذلك يبقين كما الفتيان، لا فرق بين هذا وتلك سوى في الملبس.. وهذا ما كان يدفعني لأن أتخيل أن الناس في قريتنا كلهم من نوع واحد لا فرق بين ذكر وأنثى، وأن«الحريم» ليسوا سوى مجموعة منا قررن أن يلعبن هذا الدور، ولهذا

يرتدين ملابس نساء من باب التميز!

أما هناء فلم تكن كذلك، هي واحدة من بين عدد قليل من الفتيات اللائي فلتنَ من النكبة، ومنحهن الله مساحة وافرة من الجمال..

لم تكن هذه الفتاة بالطويلة ولا القصيرة.. بشرتها فاتحة وشعرها منسدل على كتفيها، أسود فاحم وناعم.

وتمتد حدود جمال هناء إلى العيون الواسعة الكحيلة، والأنف الدقيق، وشفاه ممتلئة مثل حبات الفراولة، تشعلك رغبة في تذوقهما.

أحببت هناء حين لمحت جدائل شعرها التي انفكت وهي تجلس في «الدكة» المجاورة لي بفصل «تالتة رابع»، وساعتها راحت تلملم خصلات شعرها من على جبينها، وابتسامة رقيقة تملأ وجهها..

حين كنت أغادر المدرسة بعد انتهاء الحصة السادسة، كنت أشعر بوجع في قلبي، لا أعرف له سببًا سوى أنني لا أرغب في أن أفترق عن هذه الفتاة، ولهذا تعمدت في غير يوم أن أطوف حول منزلها دون مناسبة، لعلي أحظى برؤيتها..

ظل الحال هكذا حتى قررت يومًا أن أُصارح أمي بحقيقة مشاعري تجاه هناء، علها تساعدني وترشدني لطريق يقربني من هذه الفتاة النضرة..

- يوما، عاوز أقولك على حاجة..

كانت أمي تعد الخبز في فرن منزوٍ بحوش الدار، وكان الصهد يعرقها، فقالت متأففة:

- وده وقته يا حافظ؟ روح العب..

- لأ يوما.. لازم تسمعيني..
- طب قول وخلصني..
- أنا عاوز أجوز..

ضحكت أمي كما لم أشاهدها تضحك من قبل، ونصحتني أن أذهب بعيدًا عنها وإلا أبلغت أبي فيضربني..

- ما ليش دعوة أنا عاوز أجوز هناء بنت عم صالح.
- بتقول إيه يا قليل الرباية!
- هناء.. بحبها.
- حبك برص وعشرة خرس يا ابن الوسخة.. قوم على حيلك تعالى.

اصطحبتني أمي إلى حيث يجلس أبي بغرفته، وهمست في أذنه، فتزرقت عروق رقبته ونفرت، ثم هب واقفًا ولا أتذكر ماذا حدث وقتها، وحين استعدت وعيي ووجدتني في غرفتي، بينما نصف وجهي الأيمن متورمًا من أثر الصفعة التي طالتني من يد أبي.. فبدا هذا الوجه كبيضة مدببة من جانب ومكورة من جانب آخر!

حاولت النهوض فوجدتني أتهاوى.. استلقيت مرة أخرى في فراشي، بينما تنامى إلى سمعي حديثٌ بين أبي وأمي، يوجه هو فيه اللوم إلى الراديو الذي أفسدني ودلني على كلمات غريبة مثل «حب» هذه التي تلفظتها..

- يعني إيه حب؟ جاب منين الكلمة دي!
- يا حاج أبو حافظ ماتضايقش نفسك ده عيل صغير، ومايفسدش العيل غير اللي زيه ما قلتلك بلاش علام وكلام فاضي، ما هو مسيره يروح

الغيط يقلع ويزرع..

- عندك حق.. أنا اللي غلطان.. هو إحنا لينا في العلام والكلام الفارغ دهون والله ما لينا!

كان أبي قد قرر إنهاء رحلتي مع التعليم بعد هذه الواقعة، ولم يثنِ عزمه سوى جلسة عاصفة بينه وبين خالي محمود، الذي أكد لأبي أن «العلام ضروري»، وأن الوظيفة الميري خير من عشرة أفدنة، فوافق أبي على مضض أن أُكمل تعليمي شريطة ألا أستمر في عبثي هذا.. وقال خالي لي:

- اسمع يا حافظ، سيبك م البنات والكلام الفاضي ده.. أنت رايح المدرسة تتعلم.. إنما الحب والحاجات دي حرام.. لو قربت من أي بت ربنا هيعلقك من رموشك يوم القيامة..

- ليه يا خال؟

- يا واد بطل بقى.. قلت لك حرام.. حرام.. إيه مابتفهمش!

- أيوه.. يعني حرام أني أحب ولا حرام أني أتجوز!

- بس اسكت خالص.. جتها نيلة اللي عايزة خلف.

سبحان الله بعد كلام خالي وحديث مماثل مع أمي، انقلب انجذابي لهناء إلى نفور، فقد كان قلبي يرجف كلما شاهدتها، وهذا ما دفعني لأن أنتقل إلى «دكة» في آخر الفصل بعيدًا عن «دكة» هناء، حتى لا يطالني غضب الله.. وفي الأعوام التالية كنت أوئد كل نبتة حُب أشعر بها تجاه أي فتاة من زميلاتي في المدرسة.. كن مثل الغولات أمام عيني وقتها.

في بيت ربنا

يغيب عن ذاكرتي الوقت الذي تعلق فيه قلبي بالمسجد على وجه التحديد، فقد وجدتني محبًا للصلاة وارتياد المسجد الكبير بآخر القرية، وكم كان يؤلمني أن تنتهي الصلاة، لهذا كنت أحرص على البقاء في المسجد لأطول فترة ممكنة، وأقضي الساعات ما بين قراءة القرآن الكريم والأحاديث الشريفة.. واعتدت أن أمكث الفترة ما بين الظهر والعصر وأنا ألملم الخيوط الصغيرة وذرات التراب المتناثرة هنا وهناك على السجاد الأخضر الذي يفرش أرض المسجد..

ورغم حبي للمسجد فإنني لم أجد داخله إجابات شافية لكثير من الأسئلة «الصغيرة» التي كنت أجهلها، فمثلًا لماذا نُحرك إصبعنا حين نقرأ التشهد ونحن نصلي؟.. وهل يجب أن نقرأ الفاتحة بعد أن ينهي الإمام قراءتها فنؤمن ورائه؟ أم يكفي أن يقرأها هو!

ربما تبدو أسئلتي غبية لكني لم أجد لها إجابات وقتئذ، وحين غامرت وسألت الإمام، نظر نحوي باحتقار، وأمرني أن أصمت وأقلد الآخرين دون سؤال:

- حرك صباعك وخلاص.. لازم يعني تعمل فيها فلحوس وتسأل!
- يا مولانا أنا بس كنت عايز أعرف..
- أنت في سنة كام يا واد أنت؟
- خامسة.
- طيب ركز في مذكرتك أحسن، أما كلام الدين فخليه لما تكبر..

حاولت كثيرًا أن أطفأ شهوتي المستعرة في أن أجد إجابة لما أجهله، كي يرتاح قلبي، غير أنني يومًا لم أجد إجابة، ولا حتى رد بشأن عدم إجابة إمام المسجد لأسئلتي، حتى عواد جاري زميلي في الدراسة، حين أخبرته عما يعتمل في صدري من أسئلة نظر إليَّ والدهشة تكسو وجهه، وقال لي إن الشيطان هو الذي يُثير مثل هذه الأسئلة في رأسي حتى يشغلني عن العبادة..

جاهدت كثيرًا من أجل كبح جماح حصان أسئلتي، غير أنني فشلت مرات ومرات..

أتذكر تلك المرة التي كانت حديث أهل القرية جميعًا، ففي أحد أيام الجمعة وبينما كان الإمام يلقي الخطبة جاء عند قوله تعالى «أتى أمر الله فلا تستعجلوه».. إذ وقفتُ بينما الناس مُنكسة رءوسهم يستمعون للكلام في خشوع، وإن كان أغلبهم لا يفهم ما يقوله الإمام بلغته الفصحى وألفاظه الصعبة، وناديت:

- يا مولانا..

صمت الرجل مندهشًا، فكيف لأحد أن يقطع الخطبة، وصاح غاضبًا:

- أنت اتجننت يا ولد.. استغفر الله العظيم.. إزاي تتكلم والخطبة شغالة!

- معلش يا مولانا بس كنت عايز أعرف معنى الآية دي إزاي «أتى أمر الله» وإزاي «فلا تستعجلوه» هو مش أتى يعني خلاص حصل؟ طيب الناس هتستعجل حاجة حصلت إزاي؟ مش فاهمها دي..

بُهت الشيخ وتصبب العرق من جبينه، واحتدت نظرته، ثم أشار إليَّ بإصبعه، بينما الناس ينظرون لبعضهم البعض في استغراب:

- خرجوا الواد الكافر ده بره.. ده بيعيب على كلام ربنا.. استغفر الله العظيم.. دي من علامات الساعة..

- يا مولانا مابعيبش على كلام ربنا.. استغفر الله العظيم.. أنا بس عايز أفهم، أكيد في حكمة من الآية وفيه قصد ومعنى..

- أنا قلت خرجوه..

تبارى المصلون في إخراجي وكأنهم يتسابقون إلى عمل بطولي، وحملني أحدهم وألقى بي خارج المسجد، فبكيتُ واقتربتُ من باب المسجد فأخذت «شبشبي» وعدت إلى أمي، التي فزعت لما أنا عليه، غير أنها لم تسألني عن سر بكائي، وألقتني بحجر - كان إلى جوارها - فشج رأسي، وهي تصرخ:

- وسخت نفسك يا ابن الوسخة؟ هو أنت لحقت!

لم أكد أفيقُ من صدمة أمي، حتى جاء أبي على عجل، إذ كان يصلي في مسجد صغير بأول القرية، ولا أعرف كيف تنامى إلى علمه أمر ما حدث

في المسجد أثناء الخطبة ثم طردي، بهذه السرعة!

صحيح أن قريتنا صغيرة المساحة، وسكانها قليلون، لكن الخبر انتشر في سرعة عجيبة، خلال دقائق معدودة، وربما يكون سبب ذلك أن الناس هنا يعيشون حياة رتيبة مملة، فما يمسون عليه يصبحون عليه، وأمر مثل الذي فعلته في المسجد ليس أمرًا معتادًا، إذ لا نقاش ولا جدال في عموم الأيام والأوقات، فما بالك بساعة خطبة الجمعة، التي يجلس المصلون خلالها في خشوع، صامتون يهزون رءوسهم حتى إن استعصى عليهم فهم ما يقوله الخطيب..

ورغم الهدوء الذي يكتنف المسجد بين المصلين أثناء الخطبة، فإنني ما زلتُ أتذكر عبد السميع.. رجل طويل محني الظهر ضعيف النظر، الذي لم يكن يصمت لحظة طيلة الخطبة، إذ كان يصرخ في الأطفال الصغار من مرتادي المسجد كي يكفوا عن الهمس أثناء حديث الشيخ:

- اخرس يا بن الكلب أنت وهو، الخطبة لها احترامها!

الاكتشاف اللذيذ

في الثانية عشر من عمري، اكتشفت أهم اكتشاف جنسي في حياتي، حين احتضنت مخدتي بين فخذاي وتخيلتها "سحر" جارتنا، تلك البهية بتضاريس جسدها المتمردة..

لا أعرف ما الذي دفعني لاعتصار المخدة بين فخذاي، فشعرتُ بنشوة غريبة تسري في أوصالي، ونضح سروالي بسائل لزج مدهش..

ما هذا؟ ما الذي حدث؟

اندهشت كما لم أندهش في حياتي، وخشيت أن أُخبر أمي بما حدث فتضربني، ولهذا أسرعت إلى الخلاء فاغتسلت ومررت يدي بالماء على مكان السائل لأنظف سروالي، وحين خرجت نهرتني أمي معتقدةً أنني بللت ثيابي أثناء تبولي، وصاحت:

- يا نجس.. صغير أنت عشان تتصير على هدومك؟

- ماتصيرتش أنا.. أنا..

- أنت إيه؟

قبل أن أنطق وأبوح لأمي بأمر هذا الاكتشاف اللذيذ، تراجعت في

اللحظة الأخيرة، وقلت لها كذبًا إنها مياه بللت سروالي أثناء اغتسالي، وعدتُ إلى الغرفة، وداخلي رغبة مستعرة في أن أعيد الكرَّة..

خلال الثلاثة أيام التالية لهذه الواقعة، مارست تلك العادة بانتظام نحو خمس مرات كل يوم، وتسبب ذلك في ابتعادي عن أقراني، فكلما عدتُ من المدرسة دخلت الغرفة وأغلقتها لاحتضن المخدة التي باتت رفيقتي ودُميتي، وكنت أُحدثها كأنها سحر، التي رحل عنها زوجها بحثًا عن الرزق في العراق، وتركها فائرة تتلظى في لهيب الرغبة وحدها دون رفيق..

كان السر ينمو في صدري مثل شجرة لبلاب، ولم أستطع كتمانه، فقررت أن أبوح بالأمر لرفيقي عواد، وفي طريق عودتنا من المدرسة أخبرته بما حدث لي، على أن هذا اكتشافي الخاص، فضحك وقال إن هذا الاكتشاف يعرفه كل الصبية في مثل عمرنا ويمارسونه ليل نهار، وفي الأيام التالية كان كل منا يحكي للآخر ويتباهى بعدد المرات التي يُمارس فيها تلك العادة كل يوم.

انغمستُ في ممارسة العادة أكثر فأكثر، خصوصًا بعدم وصل «إلى يدي» صورة لفتاة عارية الصدر، أعطاني إياها عواد على سبيل السلف، وكنت حريصًا بشدة على إخفائها عن أعين أمي وأبي، غير أنه كما يقال (الحذر لا يمنع القدر).

حدث أن دخلت غرفتي ونسيت أن أغلقها بالترباس من الداخل، وبينما أنا منهمك في ممارسة عملي، وأنا أنظر إلى صورة الفتاة العارية،

فوجئت بأبي يقتحم الغرفة، فأصبتُ بشلل ولم أحرك ساكنًا، بينما كان قلبي يهدر مثل موتور سيارة أبو حسين ـ التي ينقل بها الدبش من محجر الحاج مرتضى أبو داغر ـ

- بتعمل إيه يا فاجر..

لم تكن أمامي فرصة للرد، فقد انهال أبي عليَّ ركلًا وصفعًا حتى أغمي عليَّ، وحين عاد لي وعيي، أمرني أن أغتسل وأتطهر وأُصلي لله عله يغفر لي، وإن كان قد أكد لي أن فعلتي الشنعاء هذه ليس لها جزاء إلا جهنم وبئس المصير... وإنها ستُضعف نظري وتُذهب النور عن وجهي.

فكرتُ في أن أسأل أبي عن هذا الأمر، ولماذا يحدث لنا، أو حتى كيف أقاوم رغبتي في ممارسة تلك العادة؟ لكنني خفت، فحتمًا لن يسمح لي بمجرد طرح مثل هذه التساؤلات الحرام.. نعم الحرام، فقد قال لي إن الحب حرام.. والجنس حرام..

رغم خوفي من الله، وخوفي من عقاب أبي وأمي، فإنني كنتُ أنتهز الفرصة من وقت لآخر حتى أُفرغ شحنات الرغبة الجامحة.. في دورة المياه بالبيت والمدرسة.. وفي غرفتي.. وكلما خلوتُ إلى نفسي في أي مكان بعيدًا عن العيون، وكان وقودي في هذا الأمر خيالًا في خيال.. كنتُ أتخيل ميرفت وهناء وسحر وغيرهن، فأُضاجع هذه وتلك في أحلام يقظة متواصلة تتكرر كل يوم.

طيلة السنوات التي تلت اكتشافي اللذيذ، قررت أن أكف عن هذه العادة مئات المرات، لكنني فشلت.. كنت كل مرة أتوقف فيها عن ممارسة

هذه العادة اللذيذة أُصاب بضعف عزيمة تدفعني دفعًا لأن أُمارس العادة وأنا أُقسم بأغلظ الأيمان أنها ستكون المرة الأخيرة، لهذا تعددت المرات الأخيرة!

والمُثير في الأمر، أنني كنت كل مرة في شوق لإطفاء شهوتي، وبمجرد أن أنتهي أشعر بالذنب وتأنيب الضمير، فأقسم ألا أعود لها، لكني مجددًا أضعف وأنهار أمام شهوتي المستعرة.. لقد بتُّ مدمنًا غير أنني لا أعرف طريقًا للخلاص، ومَن ذا الذي يساعدني للخلاص من هذه العادة.. أبي؟ أمي؟ أم أحد المدرسين؟ ربما عواد؟ لكن كيف وعواد نفسه منغمس في هذه العادة مثلي، ومثل العشرات من أقراننا الذين لا يخجلون من التحدث في هذا الأمر والتفاخر بعدد مرات ممارسته كل يوم.

العُهدة

«أنتم جيل محظوظ»، هكذا يؤكد الأستاذ ماهر مدرس الحاسب الآلي، الذي اصطحبنا – نحن طلاب فصل «تالتة خامس» بالمرحلة الإعدادية – في طابور، وتوقف بنا عند باب إحدى الحجرات الذي تعلوه لافتة مدون عليها عبارة «معمل الكمبيوتر»، ثم قال:

– هنا معمل الكمبيوتر.. جوه الأوضة دي 8 أجهزة حاسب آلي، الوزارة جايباهم للمدرسة، بس للأسف دول عُهدة ومش هينفع تستخدموهم.. لكن إحنا هنديلكم دروس نظري في كيفية تشغيل الكمبيوتر ومكوناته..

وهكذا كانت علاقتنا بغرفة الحاسب الآلي طوال العام، إذ لم ندخلها على الإطلاق، ومن وقت لآخر كان مفتش الوزارة يأتي ليتفقد الأجهزة، خشية أن يكون أحدها قد أصيبت بأذى لا قدر الله.. إنها عُهدة يا ناس.

وأذكر يومًا جاء المفتش واكتشف أن أحد الأجهزة بلا «ماوس»، فأجرى تحقيقًا انتهى باتهامي أنني أتلفته، رغم أنني لم أدخل حجرة الحاسب الآلي قط، وكان السبب في ذلك عواد.. نعم عواد صديقي

وجاري، فقد جاء الأستاذ ماهر وهدد بضرب كل تلاميذ المدرسة إن لم يعترف سارق «الماوس» أو يبلغ أحدهم عن الفاعل، فتطوع عواد خيرًا وقال إنني من سرق الماوس...

يومها استدعاني الناظر إلى حوش المدرسة، بعدما أمر كل التلاميذ بالانتظام في صفوف تشبه طابور الصباح، بحضور كل العاملين والمعلمين، ثم ألقى خطبة طويلة عريضة عن الأمانة، قبل أن يصدر حكمه جزاء جريمتي التي لم أقترفها، فقرر أن «يمدني» على قدمي عشرين ضربة..

اقترب مني محمود – صبي الكانتين – الذي كان يشبه الفيل؛ شاب ضخم عظيم اللحم والشحم.. وجهه مدور ممتلئ مثل الكرة، وكرشه يتدلى أمامه كما الحامل في شهرها التاسع.

أجلسني محمود عُنوة وخلع عني حذائي المهترئ، فأقبل الناظر بعصاته الغليظة وأخذ يهوي بها على باطن قدمي اليمنى وكذا اليسرى حتى تورمتا، غير مكترث للأَيمان التي أطلقتها بأنني مظلوم.. بريء من دم هذا «الماوس».

عدتُ للمنزل على ظهر حمار عم طه جارنا، الذي تصادف مروره بجوار المدرسة، وشاهدني وكأنني كمن يمشي على قشر البيض، فانتشلني من ذلك العذاب.. لكن إلى عذاب أكبر!

في البيت سألتني أمي عما حدث حتى يضربني الناظر بهذا الشكل، ولما حكيتُ لها وأخبرتها بشأن وشاية عواد الكاذبة، قالت إنني كاذب..

- طيب يوما إنتي عمرك شوفتيني سرقت حاجة!
- وهو يعني عواد هيكدب ليه؟
- يعني تصدقي عواد وتكدبي ابنك.

لم يقطع حوارنا هذا سوى قدوم أبي، الذي عندما علم بتفاصيل ما حدث «لطشني» بكف يده، فدوت في أذني صافرة استمرت لنحو يوم لم أستطع خلاله الوقوف على قدمي..

هكذا عادة أبي، حين يشكو أحدهم مني، ولو زورًا وكذا، فإنه يُبادر بعقابي دون حتى أن يعطيني الفرصة لتوضيح الأمر أو الدفاع عن نفسي.. كان يُصدر حكمه ويُنفذه في الحال..

ومنطق أبي في هذا الأمر أنه «خير لي أن يضربني أبي ولو دون سبب من أن يمد غريب يده عليَّ»!

مرت شهور وقبل انتهاء العام الدراسي حدث أمر مثير، إذ استدعاني الناظر لمكتبه، وقال لي إنهم اكتشفوا أن «الماوس» الذي أُتهمت بسرقته لم يأت أصلًا ضمن العهدة، فحينما راجعوا الكشوف خلال عملية الجرد السنوي، تبين أن أحد الأجهزة سلمُ للمدرسة دون «ماوس»..

واكتفى الناظر بأن يُطيب خاطري بكلمتين، ووعدني بتوضيح الأمر لأبي، متوعدًا عواد بعلقة ساخنة عقابًا لافترائه وكذبه..

أما أبي فلم يقل شيئًا حينما أخبره الناظر بالأمر، بل رمقني بنظرة غريبة لم أُفسرها لليوم!

الأشكيف والمكرونة

من علامات المرحلة الإعدادية ذلك المدرس الذي أطلقنا عليه لقب «الأشكيف» وسبب هذا الاسم يعود إلى أن الأستاذ «أشرف» هذا، كان وجهه مخيفًا للغاية وكله «حبوب» تتناثر على خديه وجبينه وكل ملمح في وجهه..

وكان في هذه الأيام يُعرض جزء من مسلسل «ألف ليلة وليلة الشهير»، الذي كان يدور حول الأميرة الجميلة التي يعشقها جني يسمى الأشكيف، الذي اختطفها في قصره العجيب أملًا في أن يُجبرها على حبه.. وكان الرعب يأكلنا في أثناء مشاهدتنا هذا المسلسل..

وحكاية الأستاذ أشرف مُثيرة ومُضحكة إذ كان يدرس لنا «المجال الزراعي» ورغم أن مثل هذه المواد لا تحظى باهتمام أحد، فلا نذاكرها ولا نحرص على النجاح في امتحاناتها الشهرية أو في نهاية العام، فإننا كنا مجبرين على صمها صمًا خشية غضب الأشكيف الذي كان عقابه شديدًا لمن يهملها أو لا يعتني بكراستيها.. كراسة المدرسة وكراسة الواجب المنزلي..

ولأنني جبان بطبعي كنت أشد الحريصين على استذكار كل كلمة يقولها الأستاذ أشرف وحفظها جيدًا، وهذا ما أهلني لأصبح «رائد الفصل» في حصة الزراعة، إذ كنت متفوقًا وأحصل على درجة لا تقل عن «تسعة ونص على عشرة» في أي امتحان ولو مفاجئ بها..

وفي أحد الايام، دخل الأستاذ أشرف الفصل، وكنا كالعادة كمن حط على رءوسهم الطير، وكما يقال «ترمي الإبرة ترن»، وهذا ليس من باب الأدب – لا سمح الله – بل من الرعب الذي ينشره الأشكيف فينا بمجرد رؤياه أو حتى بمجرد اقتراب موعد حصته..

لم يلتفت الأستاذ لنا فور دخوله، بل أخذ الطباشيرة وراح يكتب على السبورة تاريخ اليوم ميلاديًا وهجريًا واسم المادةـ تعلوها عبارة «بسم الله الرحمن الرحيم»، ثم عنوان الدرس، فماذا كان عنوان الدرس!

إنه «زراعة المكرونة»..

أي نعم «زراعة المكرونة» ورغم غرابة الاسم لعلمنا أن المكرونة تُصنع ولا تُزرع فإن أحدنا حتى لم ينظر للآخر ولو من باب الاستغراب، ورحنا نُدون وراء الأستاذ أشرف ما يكتبه على السبورة كالعادة..

«3 أكتوبر 1989م.. زراعة المكرونة.. تُزرع المكرونة في الفترة من ديسمبر إلى يناير.. وتحصد في أوائل فبراير.. يمكن زراعتها وحدها، وكذلك يمكن زراعتها بالصلصة.. تتعدد أنواع البذور وكذلك الثمار، لكن أجودها هي بذور المكرونة القلم.. وتصلح معظم الأراضي سواء الطينية أو الرملية لزراعة المكرونة، لكنها تحتاج إلى جو معتدل أو بارد..

وتروى أشجار المكرونة بقليل من المياه حتى لا تتعجن.. وتصدر مصر المكرونة إلى معظم بلدان العالم، خصوصًا أوروبا وأمريكا الشمالية.. وتدر زراعة وتصدير المكرونة دخلًا كبيرًا على البلاد يتجاوز العشرة ملايين دولار سنويًا».

انتهى الدرس بعدما شرحه لنا الأشكيف بالتفصيل، واختبرنا ليتأكد من تحصيلنا كل المعلومات واستيعابها، أو بالأحرى حفظها، إذ طلب منا كتابة الدرس عشرين مرة في كراسة الواجب المنزلي، وفي اليوم التالي أجرى لنا اختبارًا في هذا الدرس وحده، وبحمد الله حصل معظمنا على الدرجة النهائية «عشرة من عشرة»، وكان هذا من باب «التقية» التي لم نكن نعرف عنها شيئًا، إنما كنا نطبقها اتقاءً لغضب الأشكيف.

سين وصاد

حتى اليوم لا أعلم ما الفائدة من المعادلات الحسابية التي كنا ندرسها، وتلك النظريات، خصوصًا نظريات فيثاغورث، التي كنا نحفظها صم.. مؤكد أنها مهمة ومفيدة لنا في الحياة، لكن لم أجد يومًا إجابة لدى أحد حول أهمية «سين وصاد« و«جذر وتربيع ونق» وما شابه.. حتى الأستاذ محسن، مدرس الرياضيات لم يكن لديه إجابة..

يومًا سألت الأستاذ محسن:

- أنا نفسي بس أعرف لزمتها إيه الحاجات دي؟ أنا مش معترض والله يا أستاذ بس عايز أفهم يعني إيه «سين وصاد» والمعادلات والكلام ده؟..

- بص يا بني خلينا ناكل عيش وأنتوا احفظوا علشان تتنيلوا تنجحوا..

- طيب حضرتك درست الحاجات دي في كلية التربية.. أكيد كنت بتحب الرياضيات وفاهم أصل الرموز دي إيه وأهميتها إيه..

- يا بني بطل فزلكة، أنا باخد تلاتين جنيه أول عن آخر، فمش ناقصة وجع دماغ..

– والله أنا آسف يا أستاذ محسن بس متضايق أني زي البغبغان أحفظ كلام وأقوله وخلاص.

– أنا ماعرفش.. أنا دخلت كلية تربية علشان أضمن وظيفة بعد ما أتخرج.. والحاجات دي أنا حفظتها زي ما أنت وزمايلك لازم تحفظوها علشان تنجح وممكن تبقى مدرس زي كده وربنا يكرمك..

– وبرضك أعلم العيال اللي أنا أتعلمته ومفيش حد فينا يبقى فاهم حاجة.. يا أستاذ دي حسابات ورياضيات هندسة يعني عايزة تشغيل مخ مش حفظ وتسميع..

– ولا بقولك إيه.. توكل على الله وماتجيش الدرس تاني، الله الغني عن الاتنين جنيه ونص اللي هيجوا منك.. ارحمني يا أخي مش ناقص صداع..

أنا هو

في فترة من طفولتي كنت أتخيل نفسي أشخاصًا آخرين، فحين أتكلم كنت أتحدث بلسان شخص غيري، فأقول ما يقوله وأُبدي رأيًا يطابق رأيه، لدرجة أنني حين كنت أتكلم كنت أتخيل ملامحي وقد تبدلت لتشبه هذا الذي أتقمص شخصيته وأسمع صوتي وكأنه صوته هو..

لا أتذكر جيدًا كل الناس الذين تأثرت بهم، لكن هناك شخص واحد ترك فيَّ أثرًا كبيرًا، وسلخت شخصيته فلبستها لشهور وربما سنوات.. هو «عشري» جارنا.. كان طالبًا في كلية التربية وكان يجمعنا - نحن صبية المنطقة - ليعطينا دروسًا مجانية في اللغة الإنجليزية، ورغم بساطة ما كان يعلمه لنا إياه فإنه ترك في نفسي أثرًا كبيرًا، فقد اعتاد أن يشرح لنا قواعد اللغة الـ(**grammar**) مثل المضارع والماضي والمستقبل البسيط، ويعطينا كل حصة مجموعة مفردات جديدة فنحفظها، وكنت سعيدًا جدًا بما يقدمه لنا هذا الأستاذ المتطوع..

و«عشري» ليس مجرد مدرس بالنسبة لي إذ كنت معجبًا بآرائه واطلاعه، كما أنه كان محبًا ومشجعًا للكرة التي أنا مُغرم بها، الفارق

الوحيد أنه كان يشجع الزمالك بينما أنا أحب الأهلي.. هو يفضل الزمالك لأسباب خاصة، أما أنا فلا أدري لماذا الأهلي.. ربما لأنه الفريق الذي كان يسجل انتصارات ويحرز بطولات أكثر، أو ربما لأنه نادي الأغلبية.. فالكل يشجعه فلماذا أنا لا أشجعه! ولماذا أتحمل عناء مؤازرة فريق يخسر وأمامي «بطل» ينتصر دائمًا..

المهم نعود للأستاذ «عشري»، فأقول إنني لاحظتُ شغفي به وحرصي على تقليده، وعندما كان أحدهم يطرح أمامي موضوعًا ما ليأخذ رأي، كنت أقول وأردد ما يقوله أستاذي دون زيادة أو نقصان.. أصبحتُ أرى بعيونه وأتحدثُ بلسانه وأفكر – إن جاز قول ذلك – بعقله هو!

في أحد الأيام الصيفية، جاء أبي ببطيخة فقطعتها أمي ووضعتها أمامنا، فلما لاحظت أنني لم أمد يدي لأخذ «شقة» حملت إحداها ومدت يدها إليَّ:

– خد يا حافظ شقة بطيخ مابتاكلش ليه؟

– لأ.. مش عايز.

– يا سلام! ليه بقى دا أنت بتموت في البطيخ..

– مين قال كده أنا مابحبش البطيخ.

– يا ولا أنت هتجنني.. إزاي وأنت بتاكل فيه زي الجاموسة.

– لأ البطيخ كل ميه ومابحبوش.

– دي حلاوته ميته.. يرويك في الصيف وطعمه شهد.

– لأ يوما بقولك أنا مابحبش البطيخ.

- براحتك أنت حر.. عجيبة دي والله.

وللحق أقول إنني بالفعل أعشق البطيخ، غير أن الأستاذ عشري هو الذي لا يحبه، ولا أعرف لماذا تصرفت بهذا الشكل، بل إنني بالفعل بت لا أريد أن آكل البطيخ مثله تماما، وحين كنت أتحدث إلى أمي ظننت نفسي هو.

خالتي جابت عيل

لأمي شقيقة تصغرها بنحو عشرة أعوام، مثلها مثل الأخريات تزوجت وهي دون السادسة عشر، فحين يأتي «العدل» لا أحد يقول له «لأ»، وزوجها قريب لنا يعمل في أحد مصانع الطوب.. يغيب عن البيت من طلعة الشمس حتى مغربها.. يكد ويشقى من أجل لقمة العيش..

وبعد عام واحد من زواجها رُزقت خالتي بطفل، ولأنني كنت أُحبها كثيرًا، فقد سارعت فور علمي بالخبر كي أُبارك لها..

كنت ساعتها في دكان سيد الحلاق، الذي لم يكن يعرف من قصات الشعر سوى «البنك» – تقال مفخمة الباء والنون – حيث يخفف شعر الجناب للغاية ويطلق العنان لشعر مقدمة الرأس، فيصير الواحد منا كما الديك الشركسي، والغريب أنه لو قدر لغريب أن يزور قريتنا وشاهد أي اثنين منا لقال إننا أقارب، وذلك لشدة الشبه بين أبناء القرية كلهم بسبب قصة الشعر هذه..

المهم أن عواد دخل دكان الحلاق وأخبرني أن خالتي «جابت واد»، فانطلقت مسرعًا بعدما انتهى عم سيد من حلاقة رأسي على الزيرو،

إصلاحًا لغلطة ارتكبها في حق شعري..

وحين دخلت بيت خالتي، وفور أن رأتني «سلفتها» منى - زوجة شقيق محروس زوج خالتي - صرخت في وجهي وطلبت مني أن أخرج، ففزعت وخرجت مسرعًا لا أفهم شيئًا، فعدت إلى بيتنا شكوت لأمي ما حدث، وللغرابة أنها هي الأخرى نهرتني وقالت:

- إزاي تدخل على خالتك وهي لسه نَفسة كده؟

- كده إزاي يعني؟

- يا حمار.. بقى تبقى حالق شعرك وتدخل على واحدة والدة!

- طب وفيها إيه؟

- تتكبس يا منيل على عين أمك..

- مين اللي يتكبس؟

- خالتك..

- ويعني إيه أصلًا تتكبس دي!

- يعني ماتخلفش تاني.

- ليه يعني؟

- هو كده.. الوالدة لا حد يدخل عليها وهو حالق شعره ولا وهو شايل لحمة نية..

- ليه؟ اللحمة والشعر هيعملوا إيه.. ده هبل يُوما..

- هبل إما يهبلك عيل ناقص رباية.. أنت هتعمل فيها أبو العريف.. هي كده، إحنا طلعنا لقينا اللي قبلنا بيقولوا كده.. هتكفر!

لا أعرف لماذا تذكرت ذلك الفيلم الذي يتحدث عن بداية ظهور الإسلام في ذلك المشهد الذي يحكي عن «نائلة وإيساف»، قصة الحبيبين حين فجر أحدهما بحبيبته فسخطا صنمين، وحين عُبدت الأصنام عُبدا معهم وأصبحا إلهين..

وهكذا الناس في بلدنا، هكذا وجدوا آباءهم يمنعون دخول حليق الرأس وحامل اللحم النيء على من وضعت مولودًا حديثًا.. لماذا؟ لا أحد يعرف.. طيب هل حدث وأن «أنكبست» سيدة وضعت طفلًا ودخل عليها أقرع حليق الرأس أو حامل اللحم النيء؟ لا أحد لديه إجابة!

ليست هذه الخرافة الوحيدة التي تعيش بيننا في هذه القرية، فهناك العشرات مثلها، لا أحد يعرف سببها، ولم يختبر صحتها يومًا، فليس هناك مجال للتجريب ولا التفكير.. تفكير! من أين أتيت بهذه الكلمة؟ مؤكد أنني ممسوس، فعندنا يقولون «فلان جاله فِكر» ربنا يشفيه.

هاف ديفِنْدر

منذ تعرفت إلى كرة القدم وأنا أهوى اللعب مهاجمًا..

وكنت قد كونتُ فريقًا مع أبناء عمومتي وأقراني باسم «نادي الشمس»، وكنا نلتقي فرقًا منافسة من مناطق أخرى بالقرية، وكانت سطوتي كبيرة على هذا الفريق الذي بنيته، فكنت ألعب مهاجمًا – وهو المركز الذي يسعى إليه الجميع – بينما كنا نفُر من حراسة المرمى، ورغم أن حراسة المرمى كانت تتم بالتبادل بين أعضاء الفريق، أي إن كل لاعب يحرس المرمى لدقائق من شوطي المباراة، لكن بحكم أنني مؤسس الفريق كنت معفيًا من الوقوف بين الطوبتين ـــ فالمرمى لدينا كان مجرد حجرين يقف بينهما الحارس ـــ

وفي بلدتنا كان هناك مركز للشباب، وهو في الحقيقة مجرد مساحة واسعة من الأرض تقام عليها المباريات بين فرق القرى، ولم تكن محاطة بسور يفصلها عما حولها، حتى إنه لم تكن هناك مبارة تقام دون أن تتوقف كل خمس دقائق، لأن أحد الأهالي يمر من الملعب مصطحبًا بهائمه سواء وهو ذاهب لحقله أو وهو قادم منه، ولم يكن لأحد أن يعترض حتى لا

تغضب «البهائم».

وأتذكر أنني في يوم كنت أُشاهد إحدى المباريات بدورة المركز، وكانت تقام على ملعب مركز الشباب المذكور، بين فريق قريتنا وإحدى القرى المجاورة، فاقترب مني أحد أبناء القرية وهو واحد من المسئولين عن مركز الشباب، وأخبرني أن إدارة المركز ترغب في تكوين فريق من الناشئين، وطلب أن أبلغ أقراني ونأتي للملعب يوميا من أجل التدريبات.

وبالفعل انتظمنا في تدريبات يومية، وقرر المركز ضم كل الناشئين بالقرية للفريق، وكان عدد كبير يفوق المائة طفل، وعندما سألت أي المراكز أفضل للعب، قلت إنني أحب أن أكون مهاجمًا، ومع ذلك ليس لدي أي مانع في أن ألعب ولو حارس مرمى!

وبعد مرور شهر تقريبا فشلت في أن أصبح مهاجمًا لأن عدد اللاعبين الذين يرغبون في شغل هذا المركز كان أكثر من عشرين فردًا، ومعظمهم إما قوي البنيان أو لديه مهارة عالية، لهذا اضطررت للتنقل من مركز لآخر إلى أن استقر بي المقام، فلعبت «باك لفت» شمال لا مؤاخذة، واخترت هذا المركز لأن أحدًا لم يتقدم للعب في الجبهة اليسرى، وذلك لأن ليس بيننا أي لاعب «أشول»، أو لأنه مركز غير جذاب والكرة لا تصل لمن يشغله كثيرًا، لهذا قررت أن أكون أنا الـ«باك لفت» لأضمن مكانًا بالفريق، خصوصا في المباريات الرسمية، تلك التي نخوضها ضد فرق القرى الأخرى.

وبعد نحو عام ظهر في عالم كرة القدم مركز جديد بالنسبة لنا وهو

ما يسمونه «هاف ديفيندر»، وهذا المركز يحتاج إلى لاعب لديه طاقة ومجهود وافر، ويمكنه إفساد هجمات الفريق المنافس وتشتيت الكرة قبل أن تُشكل خطرًا على مرمى الفريق، وكذلك المساهمة في بناء هجمات على مرمى الفريق المنافس..

ولما لم يرتضِ أحد أن يلعب «هاف ديفيندر»، كما أن البعض أقبل على اللعب في الجبهة اليسرى، لم أجد بُدًا من التنازل واللعب في وسط الملعب.

ربما كان بإمكاني أن أصر على حلمي باللعب في مركز المهاجم، لأحظى بتشجيع واهتمام المشجعين، الذين لا يُحبون في الكرة سوى الأهداف ومن يُحرزها، لكني كنت مستسلمًا بشكل مبالغ فيه، رغم أن ما كان لدي من مهارة، كان من شأنه أن يمكنني أن أصبح أحد المهاجمين المتميزين في الفريق، وإن لم أكن أفضلهم، فأنا مهاجم موهوب ولدي ميزة ليست في أحد من أقراني وهي دقة التصويب والقدرة على «ركن الكرة» بعيدًا عن حراس المرمى، لدرجة أن أحد زملائي سمعته يقول للمدرب:

- الواد حافظ ده لو تسيبهوا له أي كرة ثابتة يقدر يجيبها جون.. الواد عليه ركنة بنت كلب ماحدش يقدر يصدها.

حقًا، لن تُحقق حلمك يومًا وأنت تقدم تنازلات مجانية، تمام مثلما أن أحدهم لن يُحرز هدفًا إلا إذا ركل الكرة!

دو يو سبيك إنجليش؟

كنت واحدًا من بين خمسة طلاب فقط بالقرية كلها حصلوا على مجموع في الإعدادية يؤهل لدخول الثانوية العامة، فغالبية أبناء القرية يحصلون على مجاميع تنحشر بين الخمسين والخمسة وخمسين في المائة، ويتفرقون بين «صنايع» و«تجارة».. ليحصل الواحد منهم على «دبلون» لا يغني ولا يثمن من جوع..

ولم يكن الأهل يكترثون للأمر، فمصير الأبناء محتوم، إما سيعمل هذا الفتى صبي بناء، أو «تباع على عربية طوب» والغالبية يتجهون لقمائن الطوب المحيطة بالبلدة، فيعملون فيها، وقلة يتجهون للمحاجر فيعملون في الرمل والظلط، مقابل نسبة قليلة ممن حصلوا على تعليم عال، وهؤلاء يمكن حصرهم تحديدًا: واحد ضابط بالجيش وطبيب خريج أزهر وخمسة مدرسين..

وكانت الأزمة الكبرى في الثانوية العامة أنني مضطر للمشي يوميًا قرابة خمسة كيلو متر ذهابًا ومثلهم في العودة، فالمدرسة بعيدة في قرية مجاورة وليس بيننا وبينها وسيلة مواصلات حتى إن كانت حمارة عرجاء .. لهذا كانت مأساة ولم يكن يشغل بالي أمر الدروس والاستذكار بقدر همي المتمثل في ذلك العقاب اليومي بهذا «المشوار» المقدس.

وبعيدًا عن حصتي المشي يوميا، كانت هناك مشاكل أخرى تتعلق بالدراسة، خصوصا في مادة اللغة الإنجليزية التي يدرسها لنا الأستاذ سيد رمضان..

في الأصل كان الأستاذ سيد رمضان مدرسًا للمواد الاجتماعية، لكنهم أسندوا إليه تدرس اللغة الإنجليزية أيضًا بسبب النقص في مدرسي هذه المادة، وربما كان الأستاذ سيد محبًا للجغرافيا بشكل كبير، وهذا يُفسر إصراره على أن يدرس لنا الإنجليزية بطريقة الخرائط.. أي والله بطريقة الخرائط، حيث كان يرسم لنا خريطة مصر بشكلها المربع، الذي يتخلله نهر النيل، وفيها «ينَطوَر» كلمات إنجليزية يطلب مننا حفظها بواقع نحو أربعين كلمة كل حصة، وفي اليوم التالي «يسمعها لنا».. وويله من لا يحفظ..

ذات حصة، دخل الأستاذ سيد وراح ينتقي منا بعض الطلاب، فيأمر هذا أن يقف، وهكذا واحد بعد الآخر.. ثم جاء الدور عليَّ..

- اقف.
- أمرك يا أستاذ.
- اسمك إيه؟
- حافظ العربي..
- أنا مش بقولك حافظ عربي ولا إنجليزي.
- يا فندم أنا اسمي حافظ وأبويا اسمه العربي.
- آه.. طيب يا حافظ أنت كتبت اسمك عندي في «الدرس»؟
- لأ حضرتك.

- ليه؟
- مش عارف أبويا يقدر يدفع فلوس الدرس ولا لأ..
- طيب من غير رغي تيجي الدرس بعد انتهاء اليوم.. وتقول لأبوك لو ماسجلتش اسمك مش هتشوف النجاح لا السنادي ولا السنين الجاية.
- بس يا أستاذ..
- اخرس يلا.

قطعًا لم أتفوه بكلمة، فمهما قلت لن أُغير من الأمر شيئًا، كما أن الأستاذ سيد رمضان لم يكتفِ بذلك، فقد بادرني بسؤال:

- هاه حافظ درس «إن ماي إيسكول»؟

يقصد **School** .

- هو حضرتك لازم نحفظه ولا كفاية نفهمه؟ أنا ممكن أسمع كلماته كلها..

لم يمنحني الرجل فرصة، فنزل على جسدي بعصاته، ودفعني إلى السبورة فرفعت يدي وظهري للطلاب حتى نهاية الحصة، فيما تبارى الباقون في تسميع الدرس كاملًا:

«إيفري داي أي جو تو ماي إيسكولباي بايسكل.. أي لايك ماي إيسكولبيكوزإتز كلين أند آي كان ميت ماي كوليكس زير.. أن ماي إيسكول أي ليرن ألوت في جود سينجس.. أند أي ويل بي أجود مأنأن فيوتشر... ».

أعتقد أنه لا داعي لأن أخبركم أنني في نهاية العام خرجت بمحلق في اللغة الإنجليزية.

أميرة حبي أنا

في السنة الثانية من مرحلة الثانوية العامة، هبط علينا ملاك من السويس.. فتاة رقيقة كنت أَخالها شفافة، إذا تحدثت بدت وكأنها تعزف على جيتار يثير البهجة في الأرجاء.. عيناها ملونتان تشعان بريقًا ليس له مثيل، وإذا خطت تحسبها تطير كنسمة باردة في حر الصيف..

إنها أميرة سعيد، تلك الفتاة التي أتى بها والدها من السويس عائدًا إلى مسقط رأسه بقرية الأخصاص، لتكمل تعليمها الثانوي في مدرستنا المحظوظة..

علمتُ فيما بعد أن سعيد بيه هو لواء شرطة، وسبب إلحاقه أميرة بهذه المدرسة هو أنها رغم جمالها الفائق فليس لها نصيب من «الشطارة» في شيء، وهو يحلم أن تحصل على مجموع محترم يؤهلها لدخول كلية متميزة ليس من أجل العمل بعد التخرج، لكن كي تكون أهلًا للزواج من شاب ينتمي للطبقة الراقية، ولهذا اختار مدرسة الأخصاص كي يتمكن من مساعدة ابنته في الامتحانات، فـ«حبايبه» فيها كُثر..

مثلت أميرة لي صدمة كبيرة.. نعم، فلم أرَ فتاة في حسنها ولا رقتها من

قبل – ولا من بعد – لقد بعثرت هذه الفتاة كياني، وبتُ لا أطيق انتهاء الدوام ولا أيام العطلات الأسبوعية والسنوية، تمنيتُ لو كانت المدرسة أربع وعشرين ساعة كل يوم، دون إجازات..

كم حلمتُ بها، ومن عجب أنني لم أتخيلها في أحلامي الجنسية ولو للحظة، كنت أعتبر ذلك خيانة لحب مزعوم عشتُ نشوته، ولم أصرح بحبي هذا لأحد سوى لرفيقي في الدراسة «جلال»، الذي حاول تشجيعي مرارًا كي أتحدث إلى أميرة وأكاشفها بما يعتمل في صدري.

– أنت بستهبل يا جلال.. عايزني أقول لأميرة إني بحبها!

– ويجرى إيه يا حافظ؟

– يا عم صلي على النبي.. شوف هي مين وأنا مين؟

– يا بني المسألة مش كده خالص.. أنا عارف أننا لسه في ثانوي.. صغيرين يعني على موضوع الجواز ده..

– ههههههههههههههه والنعمة أنت واد مسخرة.. جواز إيه؟ ده ماجاش في بالي أصلًا.. وبعدين مش السن هو المشكلة، لو عليَّ أنا ممكن استنى عمري كله..

– أومال فيه إيه؟

– ياد بطل عبط.. دي أبوها لوا.. وهي زي ما أنت شايف أميرة.. أميرة بالاسم والشكل وكل حاجة.. وأنا زي ما أنت شايف لا أنا واد حليوة ولا طول بعرض ولا أي حاجة خالص..

– ماشي معاك في ده كله.. بس أنت حتى خايف تقولها إن فيه حاجة

في قلبك ناحيتها.. مش بس كده.. ده أنت حتى خايف تكلمها كلام عادي.. يا بني حاول تكلمها ولو من باب أنك تبسط نفسك بأنك بتكلم واحدة بتحبها..

- بص مش هكدب عليك أيوه أنا حتى خايف أكلمها أو يمكن مكسوف.. شعور كده مش عارف أوصفه..

- دي مشكلتك يا حافظ على فكرة، أنت دايمًا ظالم نفسك بسبب جبنك ده..

- يا راجل؟

- أيوه يا حافظ، فاكر لما كنا راكبين الميكروباص وواحد جه قعد جمبك ورجله دايسة على رجلك طول الطريق، أنت حتى خفت تقوله يشيل رجله.. بلاش دي.. فاكر في فرح البت قريبتكم دي بتاعة حلوان.. فاكر لما قعدت في العربية مع قرايب العريس من حلوان لحد دمياط وأنت مزنوق عايز تتصير واتكسفت تقول للسواق يقف في أي حتة تفك ميه!

- أنت غريب أوي يا جلال..

- أنت اللي غريب.. يا بني ماتفكرش في الناس أكتر ما تفكر في نفسك.. لما تعوز حاجة اعملها ما دام مش على حساب حد.. حب نفسك وشوف مصلحتك علشان تعرف تحب الناس وتشوف مصلحتهم هم كمان.. مافيش حد بيظلم نفسه يقدر يساعد غيره..

أي حاجة

رغم عزلتي وانطوائي، فإنني أحب العيش في جماعة، وأُفضل أن أسير مع المجموع وأن ألتزم بقواعد وضعها غيري دون أن أرهق تفكيري في البحث عما أحب أو أفضل، ربما لأنني لا أريد أن أفكر لماذا أحب هذا أو أفضل ذلك..

هذه حقيقة توصلت إليها في أحد الأيام.. كنا «شلة» من طلاب الثانوية العامة.. زملاء مدرسة.. قررنا الذهاب إلى مدينة حلوان القريبة من أجل التنزه وشراء ملابس للعيد.. عذرًا لقد قلت قررنا والحقيقة أنهم قرروا أنا وافقت.. ففي بداية الأمر قال أحدهم فلنذهب إلى مركز الصف.. فقلت «ماشي»، ثم خرج أحد الزملاء واقترح الذهاب لمدينة الجيزة، فلم أمانع، إلى أن استقر ثلاثة منهم على الذهاب إلى حلوان، فبادرت بالترحيب بالفكرة.

- إيه يا عم حافظ هو أي حاجة والسلام.
- مش فاهم.. يا جلال.
- يعني سيد قال الصف ما اعترضتش، وحسن قال الجيزة قلت

عادي، ولما أنا قلت حلوان وافقت.. يا بني أنت مالكش رأي؟

- لا طبعًا ليا رأي، بس أنا مابحبش أفرض رأيي على حد..

- الكلام ده لو حاجة ماتخصكش، بس إحنا رايحين مشوار مع بعض، ومن حقك تختار مكان أو ترفض مكان..

- يا سلام! طيب لو قلت يعني على مكان مش عاجب حد فيكم؟

- عادي، هنقول.

- طب خلاص يا جلال بعد كده هعارض في أي حاجة...

- مش القصد بس يا بني كده مش هينفع..

وصلنا حلوان، فاقترح جلال أن نذهب للجنينة اليابانية لنجلس هناك بعض الشيء، وقد اشترينا أرغفة حواوشي وسندوتشات كبدة وسجق لنتاولها هناك..

وفي الجنينة كنت أُراقب من بعيد فتيات المدارس ذوات الأجساد الفائرة، وهن بـ«اليونيفورم» يتمايلن ضحكًا وغمزًا برفقة أصحابهن من البنين، وكم تمنيت لو أن إحداهن تسمح لي بالاختلاء بها بعيدًا عن الأعين، كنت أريد أن أروي ظمأ سنين من الحرمان، منذ تعرفت على شهوتي المتقدة..

والمضحك أنني طوال الوقت كنت أنظر للفتيات وأصور لنفسي أن غير واحدة منهن يلاحظن لهفي وشوقي، فتخيلت هذا الحوار بين فتاتين منهن:

- واخدة بالك من الواد الأسمراني ده؟

- أيوه.. ده عسل.
- عارفة مع أنه شكله عادي، بس باين عليه يتحب.
- فعلًا.. شوفي عيونه ونظراته.. شكله غير كل الولاد اللي معاه.
- تفتكري يرضى يصاحبنا.
- مش عارفة.. ما تيجي نسأله.
- لأ يا أختي.. هو لو عايز كان قال أو حتى كان يحاول يعمل أي حاجة..

كثير من هذه الحوارات المزعومة تخيلتها في الصباح غير أنني في المساء كنت أدرك الحقيقة وهي أنني شخص عادي، ليس لدي أي مميزات، وإن كنت أؤمن أن لدي مواهب وقدرات خاصة، والغريب أن يجتمع في هذا الإيمان أنني شخص مميز مع إيمان آخر راسخ في وجداني وعقلي أنني يومًا لن أصبح شيئًا وأن الدنيا لن تضحك لي أبدًا..

غادرنا الجنينة وانصرفنا للميدان المجاور لمترو الأنفاق بوسط حلوان، حيث محلات الملابس بالشوارع التي تلف الميدان، وكان معي سبعين جنيهًا، ادخرتها «بالضالين» لشراء بنطلون جينز وتي شيرت، غير أنني غيرت رأيي حين علمت أن جلال وباقي أصدقائنا سوف يشترون قماشًا ليفصلونه عند ترزي في الميدان، ودون تفكير اشتريت مثلهم ثلاثة أمتار من قماش زيتي لامع لتفصيل بنطلون وكذا قطعة قماش فسكوز من أجل القميص.

- هاه! تمشي دلوقتي ولا نقعد شوية كمان يا حافظ.

- اللي تشوفه يا جلال.
- أنت عايز إيه؟
- أي حاجة، لو أنتو عايزين نقعد ماشي، نروح برضك ماشي.

لم يكن لديَّ القدرة على تقرير مصيري حتى في أتفه الأمور، كنت دائمًا ما أُحيل أمري إلى غيري.. أتذكر حين كنت طفلًا كان صديقي المقرب - وقتئذ - ويدعى علي، هو من يفكر لأجلي، وفي المدرسة الابتدائية أوكلت أمري لعواد، وهكذا الحال مع جلال الذي بدأ يضيق بتصرفاتي، ويقول إنني شخص متواكل لا أستطيع أن أخطط لنفسي أو أتخذ أي قرار، وأنا شخصيًا لا أعرف هل هو محق في ذلك أم إنه مخطئ، فغالبًا أنا أرى أن اعتمادي على غيري وتساهلي في حقوقي سببه هو حبي للعيش في جماعة، وحرصي على ألا أشق الصف حتى إن جاء ذلك على حسابي ودون رغبتي.

ممنوع الدخول

اكتشفت موهبتي في الرسم منذ الصغر، وأول لوحة رسمتها بالطباشير على لوح خشبي.. رسمت الأهرامات الثلاثة وأبو الهول تعلوهم الشمس التي ترسل أشعتها في كل الأرجاء، ولما شاهدها أحد أقاربنا قال «الواد ده فنان»، ولما كبرت قليلًا رسمت بالقلم الرصاص ثلاثة بورتريهات لهدى سلطان وأحمد شوبير وعمر الشريف..

لا أعرف لماذا هؤلاء الثلاثة تحديدًا، ربما لأن صورًا واضحة لهم توفرت لي، وربما لأن في ملامحهم ما يُسهل تصويرها بسهولة.

وكل من شاهد هذه البورتريهات أبدى انبهاره بها، غير أن أحدًا لم يُصدق أنني الذي رسمها، وكانت حجتمهم «طيب لو أنت اللي رسمتهم ارسمني»، والغريب أنني لم أنجح في رسم أي من أهل القرية، لأنهم كانوا يُصرون على أن أرسمهم على الطبيعة، بينما كنت أُريد أنا أن أرسمهم من خلال صورهم الفوتوغرافية..

ويومًا أمسك قريب لي– لكنه يسكن حلوان – يدي وقال لي إن أصابعي تنم عن أنني فنان، طويلة ونحيفة، وهذه هي أصابع الفنانين..

هكذا أقنعني، فتمسكتُ بموهبتي في الرسم وحلمي بأن أصبح رسامًا، وحين أنهيت الثانوية العامة بمجموع 93 في المائة، وكان في وقتها مجموعًا «كبيرًا»، أردت أن ألتحق بكلية الفنون الجميلة، لكن أبي كاد يقتلني، وأجبرني على دخول كلية السياحة والفنادق، ولما سألته لماذا قال لي إن «السياحة هي المستقبل»، وذلك رغم أنه رجل بسيط لا يعرف شيئًا مما يدور حولنا..

وتفسيري لإصرار أبي على أن أدخل «السياحة والفنادق» هو أن التلفزيون في تسعينيات القرن الماضي لم يكن يكف عن بث إعلانات تنتهي بعبارة «السياحة هي المستقبل»، وبالفعل اضطررت لوضع «كلية السياحة والفنادق» كرغبة أولى في أوراق التنسيق، ولما جاء خطاب الترشيح، ذهبت للكلية في شارع عبد العزيز آل سعود، بعد أن مكثتُ ثلاثة أيام أسأل عن ذلك العنوان، فعلاقتي بالشوارع لا تتعدى علاقة حمو بيكا بسيمفونيات بيتهوفن.

ولم يكن المجموع وحده كافيًا لدخول كلية السياحة والفنادق، إذ كان لا بد من اجتياز «الإنترفيو» الذي تعقده الكلية، بين الطلاب المرشحين وبعض الدكاترة، والغريب أنني اجتزت هذه المقابلة، وقُبلت أوراقي بعدما سألوني عن سبب التحاقي ورغبتي في دراسة السياحة والفنادق، حيث لم أجد ما أقوله سوى إن «السياحة هي المستقبل»..

لقد كنت مثل البغبغان، أردد كلمات لم أكن أعيها أو أؤمن بها..

ورغم عدم اهتمامي بالسياحة والفنادق ودراستها، فإنني أُغرمت

بالكلية منذ اليوم الأول، وذلك لأسباب جنسية بحتة، حيث كان إلى جواري في الإنترفيو فتاة بضة مربربة ترتدي بنطلونًا يكاد ينفجر عن فخذيها و«بادي كت» يكشف عن كتفين مثل المرمر..

وعلمت فيما بعد أن اسم هذه الفتاة "ميسون" وأنها من أسوان.

- يا صلاة النبي.. لما بنات أسوان كده أومال بتوع جاردن سيتي عاملين إزاي!

ومع ذلك، لم تكن حياتي في الكلية كلها «مليطة» وبصبصة، فقد فوجئت أن معظم المواد التي أدرسها تتكلم عن الحسابات والميزانيات، إذ كنتُ طالبًا في شعبة «دراسات سياحية»، وفيها ندرس التخطيط للرحلات السياحية ورحلة السائح من بلده حتى يعود إليه مرة أخرى.

وأذكر أن أحد الدكاترة كان يُدرس لنا طريقة إعداد البرنامج السياحي، فكان يقول لنا:

- تخيلوا معي أن عندنا عشرين أجنبيًا جايين يزوروا مصر للسياحة.. إحنا بقى لما نيجي نعمل البرنامج نعمله على أساس أن اللي جاي خمسة بس، يعني كل حاجة تضرب سعرها في أربعة.. وده ليه؟ أقولكم.. علشان لو تلاتة أربعة من السياح ألغوا الحجز مانطلعش إحنا خسرانين.. يبقى الباقيين يشيلوا الليلة، ومايهمكش ولا ترحم حد، دول كفرة ولاد كلب ومعاهم فلوس زي الرز، وبعدين دول جايين يتفسحوا مش يتعالجوا.. وبعدين أوعى منك له تسيب حاجة من غير حساب.. يعني مثلًا الورد اللي بنستقبلهم بيه في المطار وقبل ما يركبوا الباص.. احسب الوردة بكام

واضرب في خمسة ستة.. مش هيفرق معاهم لما يدفعوا تلاتة أربعة جنيه في وردة.. وهم أساسا مش هيعرفوا أنهم دفعوا في الوردة حاجة، دي هتتحسب على تكلفة البرنامج ككل، وإحنا هنقدملهم الوردة على أنها هدية..

منذ هذه اللحظة كان قراري ألا أُكمل في دراسة السياحة، فأنا شخصيًا لا أحب الحسابات، كما أنني ما زلتُ أتذكر قول أحد المشايخ عقب إحدى الصلوات، حين ألقى كلمة أكد خلالها أن السياحة أصلًا حرام، وأن الآثار ليست سوى أوثان.. أصنام يجب تدميرها.

بعد مرور نحو شهر في الكلية، وبعد أن فشلت خلالها في إقامة علاقة عاطفية مع أية فتاة من الحسناوات اللائي أشاهدهن كل يوم، قررت أن أمتنع عن استكمال الدراسة، وبدأت أتغيب..

ولما وصل غيابي لفترات تستدعي فصلي من الكلية، جاء ساعي البريد إلى بيتنا، وأعطى أبي خطاب الفصل، والمدهش أن الرجل قال لأبي إن هذا الخطاب من المدينة الجامعية التي وافقت إدارتها على أن أقيم فيها، وطلب من أبي الحلاوة، فأعطاه ورقة بخمسة جنيهات، فيما التزمت أنا الصمت، فخُير لي أن يأخذ هذا النصاب خمسة جنيهات حلاوة خطاب فصلي، بدلًا من أن يعرف أبي أنني لا أذهب للكلية وأنني فصلتُ منها.

راس كرنب

يُصر أبي على أن جمال عبد الناصر هو الزعيم الأوحد، وأن مصر لم تُنجب وطنيًا غيره، ولا يقبل أن يتحمل الرجل الراحل مسئولية الهزيمة في «سبعة وستين».. هكذا رباني والدي وحشر في عقلي هذه «الحقيقة» المقدسة التي لا تقبل النقاش أو التشكيك.

سألت أبي من أين جاء بهذا اليقين، غير أنه لم يُجب على سؤالي يومًا.

- يعني أنت يابا، عندك معلومات عن فترة عبد الناصر وكل اللي حصل فيها؟

- وهو أنت بس اللي ناصح والناس دي كلها أغبيا!

- لأ يا حاج ماقلتش كده، أنا بس مش عايز أسمع الكلام وأردده من غير ما أفهم..

- الكلام ده لو حد غريب إللي بيقول.. أنا أبوك.. أكيد يعني مش هغشك.

- أكيد يابا مش هتضحك عليَّ، بس ده مش كلامك أنت بس بتنقله.

- قصدك أن أنا بغبغان يا حافظ!

- العفو يابا ينقطع لساني لو أقصد كده.. أنا قصدي أنك راجل غلبان لا ليك في السياسة ولا ليك في اللوع بتاعها.. وأنا مش أحسن منك.. صحيح أنا متعلم بس كتب التاريخ دي كلها عجايب.. فيه ناس تُمجد في ناصر وتعمله إله.. وناس تانية تخليه شيطان..

- طب والحل؟

- أبدًا أنا نفسي ألاقي حد يدلني على الصح.. ومن ناحية تانية نفسي ماشغلش بالي باللي فات.

- مش فاهم قصدك؟!

- بقول مالناش دعوة باللي فات.

- يا بني اللي مالوش أصل مايسواش..

- لأ مش قصدي.. أنا بقول إننا كل شوية نتكلم عن أن الفراعنة عملوا وسووا وإن المصريين زمان عملوا كيت وكيت، نفسي مرة نقول إحنا عملنا كذا مش اللي سبقونا عملوا إيه.

ليس هذا فقط ما تربيتُ عليه، فمنذ أن وعيت على الدنيا، والناس تقول إن أنور السادات خائن، ولفترة كبيرة من حياتي كنت ممتلئًا بيقين راسخ أنه بالفعل رجل خائن باع مصر لليهود، لكنني في وقت من الأوقات فكرتُ في أن هذا الرجل الخائن هو صاحب قرار حرب أكتوبر، ولو كان خائنًا فلماذا حارب الإسرائيليين واسترد سيناء؟

حقيقة لم أجد إجابةً، فحتى الآن حين يُذكر اسم السادات يستدعي عقلي كلمة «خائن»!

لماذا تتزاحم مثل هذه الأفكار في رأسي وتتدافع الآن؟

ليست لديَّ إجابة، لكن ما أعرفه أن كثيرًا من مثل هذه الأفكار تم حشو رؤوسنا بها كما تُحشى أوراق الكرنب بالأرز والخلطة..

فمثلًا، أتذكر أن لديَّ إيمانًا عميقًا - لا أعرف مصدره - يقول إن الطفل المصري هو أذكى طفل في العالم حتى يبلغ السادسة من عمره، فيتراجع معدل ذكائه إلى أن يصير «أهبل» في سن العشرين.. سبحان الله يبدو أن الطفل المصري صالح للاستخدام الآدمي حتى ست سنوات، وبعدها يصبح تالفًا يجب استبداله بواحد صيني.

يومًا قال لي جاري عم كارم:

- عارف يا حافظ إحنا قدامنا تلت أربع سنين ونبقى دولة عظمى.

- يا راجل؟

- أي والله.

- ليه يعني؟

- أنا قريت في الجرنال الكلام ده.. بيقول إن مصر بعد كام سنة كده هيبقى بقالها تلاتين سنة من غير ما تدخل حرب، والدول اللي بتقعد المدة دي بتبقى عظمى.

- عظمى ولا صغرى يا عم كارم.. هي درجة حرارة.

- بتتمألس عليَّ يا حافظ؟!

- لا والله يا عم كارم.. بس أنا أعرف أن دولة عظمى دي يعني اقتصادها قوي وتقدر تحمي نفسها، وشعبها يبقى مبسوط.

- طيب وهو فيه شعب مبسوط أكتر مننا؟ ده إحنا طول النهار بنضحك.

- مش القصد، مبسوط يعني عيشته مرتاحة.. مفيش بطالة، والناس بتقبض كويس وبتاكل كويس وبتتعالج وتتعلم برضو كويس.

- يا أخي سيبك من كلام الشيوعيين ده.. الغنى غنى النفس.

- شيوعيين مين يا عم كارم؟

- أومال أنت إيه.. وطني ولا إخوان؟

- لا ده ولا ده..

- تبقى شيوعي.

- يا راجل صلي بينا على النبي،

لا أعرف من أين أتى عم كارم بكلمة شيوعي هذه، فهو رجل بسيط للغاية ولا يعرف شيئًا في السياسة رغم أنه عضو بجماعة الإخوان المسلمين.. طبعًا هو ليس من القيادات بل مجرد عضو في قاعدة قروية، لا يعرف حتى عنوان مكتب الإرشاد، ورغم أنه عضو بالجماعة فإنه يقضي ليله نهاره في صحبة الحاج عرفة الريس، وهذا الأخير أمين الحزب الوطني بالقرية..

قد تقول وإيش لمَّ الشامي على المغربي، فأقولك إن الناس في بلدنا غلابة وانتمائاتهم السياسية هذه إما من باب الوجاهة أو بحثًا عن مصلحة..

فمثلًا، عم كارم ينتمي للإخوان لأنهم يمنحونه كرتونة مملوءة بالسكر والزيت والمكرونة والصابون كل شهر، بينما الحاج عرفة فهو رجل مقتدر

ولديه محاجر رمل وظلط بالجبل المحيط بقريتنا، وهو بانتمائه للحزب الوطني يحمي مصالحه ويحافظ على ماله، كما أنه يتقي بذلك شر رجال المركز، فضباط الشرطة يعرفون أنه تاجر آثار كبير، غير أن أحدهم لا يستطيع الاقتراب منه لموقعه الحزبي، فضلًا عن أنه كاسر أعينهم براتب شهري يدفعه لمأمور المركز ومن معه!

وقد تُفسر علاقة عم كارم والحاج عرفة هذه معضلة العلاقة بين الإخوان والحزب الوطني، فمنذ وعيت على الدنيا وهم يقولون لنا إن الإخوان تُعارض الوطني، وإن الحزب يكره الجماعة، ورغم أن الحكومة حظرت الإخوان وقضت بحل التنظيم، فمن الغريب أن الدولة لم تلقِ القبض على أي من مرشدي الإخوان ولم تُغلق مكتب الإرشاد الذي يعرف أصغر عيل في مصر أنه في المنيل.

ومع ذلك كنا جميعًا نؤمن أن الحزب الوطني ضد جماعة الإخوان وأن بينهما ما صنع الحداد، رغم أننا كنا نرى بأعيننا أنهم كما السمن على العسل، وكنا شهودًا على زيجة عرفية، يدعي فيها كل طرف أنه يطيق العمى ولا يطيق الطرف الآخر!

مواطن رسمي

أنا صنيعة الإعلام.. تليفزيون وجرائد.. هذه الحقيقة، فقد بُني وجداني وتربى على نشرات الأخبار وبرامج التليفزيون، كما أن لمقالات الرأي في الصحف والمجلات نصيبًا في تربيتي هذه..

كنت مواطنًا مثاليًا، ألقيتُ بعقلي في أقرب صفيحة زبالة ووضعت مكانه «عقل رسمي»، فما تقوله الدولة يصبح يقينًا ويتحول إلى إيمان يسكن قلبي، وإذا غيرت الدولة وجهة نظرها بدلت وجهت نظري معها في الحال، تمامًا مثلما كنا نفعل مرتين في كل عام بتغيير التوقيت الصيفي ومثيله الشتوي..

أعتقد أن داخلي ما يشبه الزر..

بضغطة واحدة على هذا الزر أتحول من حب فلان إلى كراهيته.. وربما بضغطة أخرى أعود لما كنت عليه في السابق، ويتكرر الأمر بعدد لا نهائي، طالما هناك من يضغط على الزر..

تذكرتُ حين وقف حسن نصر الله أمام الإسرائيليين ودخل في حرب معهم انتهت بانسحاب اليهود من جنوب لبنان..

ساعتُها روج التليفزيون والراديو والصحف أن حسن نصر الله هو أسد

الله الجديد.. بطل عربي لا يشق له غبار..

وفي هذه الأيام لم يكن هناك بيت يخلو في مصر من صورة لزعيم حزب الله..

ولم تخرج صحيفة ولا برنامج في ذلك الوقت إلا ليسلط الضوء على بطولة الحزب وقائده، فتدافع المصريون يطلقون على أبنائهم اسم «السيد» حسن، تيمنًا وعرفانًا ببطولة الرجل الشجاع..

غير أن الأمر لم يدم طويلًا، فبعد عدة أعوام، تبدل إيماننا ببطولة حزب الله إلى يقين أن هذا الرجل وحزبه ليس سوى يد للشيطان تسعى لتفكيك العالم الإسلامي، وتخطط لتفتيت الدولة المصرية..

فهكذا كانت وجهة النظر الرسمية، وهكذا كانت وجهة نظرنا بالتبعية..

وفي «الألفين»، وجدتني أقدس رجب طيب أردوغان، ذلك «المسلم» الذي وقف في الأمم المتحدة، ليُلقن رئيس وزراء إسرائيل شيمون بيريز درسًا قاسيًا، مدافعًا عن الإسلام، فرحتُ - مثل غيري من المصريين - أتحاكى ببطولته وشجاعته، غير أنني بدلت قناعاتي - مثلما أغير فانلتي الداخلية - حين تحول الموقف الرسمي للدولة من هذا الرجل، فبتُ أراه غازيًا عثمانيًا يريد إعادة دولة الخلافة باحتلال مصر وتحويلها لإحدى ولايات سلطنته الكبرى.

لا أعرف إن كان حسن نصر الله وأردوغان من الشياطين أم الملائكة! لكني أعرف فقط أنني لا أملك عقلي، وأنني مجرد مواطن مثالي لا يُخالف الرأي الرسمي.

يبحث على نفسه

ضاعت عليَّ السنة.. رسبتُ في السنة الأولى لي بالجامعة، بعدما انقطعت عن كلية السياحة والفنادق، وفي العام التالي حولت أوراقي إلى كلية الآداب..

لماذا كلية الآداب؟

لا أعرف – ربما- لأن أحد زملاء الثانوية العامة حوَّل هو الآخر أوراقه من كلية التجارة إلى الآداب، فقد كان زميلي هذا صديقًا مقربًا، وربما قلت إن رفقته في كلية الآداب أفضل من لا شيء.

وكانت المشكلة الكبرى هي أي قسم بكلية الآداب سوف ندرس فيه؟ لا أتذكر جيدًا السبب في أن أَجمعنا على قسم اللغة الإنجليزية!

وهكذا بتُّ طالبًا بكلية الآداب، لكنني لم أعرف القسم الذي سأنتسب له إلا قبل امتحانات «التيرم» الأول بنحو أسبوعين، وطبعًا لست في حاجة إلى أن أخبركم أنني رسبت للسنة الثانية، فقد دخلت امتحانات التيرم وأنا لا أعرف أسماء المواد المقررة!!

كدتُ أصاب بعقدة، وبات لدي يقين أنني يومًا لن أتخرج في أي كلية،

وأهملت حضور المحاضرات، وفي نهاية العام أعلنت النتيجة المتوقعة.

في العام التالي تبدل الحال، فقد بدأت في تكوين صداقات مع الزملاء و«الزميلات»، وكان للزميلات فعل السحر في إقبالي على الدراسة بكلية الآداب.. أي نعم إنني لم أصادق بنات «كلاس» من نوعية مايا ودينا المملوك، فمثل هاتين الفتاتين ممن يشبهن نجمات السينما لم يكن لي حتى أن أحلم بالاقتراب منهما وأنا أذهب إلى جامعة حلوان بملابس مهلهلة وحذاء يحتاج إلى نصف نعل..

كنت في هذه المرحلة من حياتي «ساذجًا» لدرجة العبط، ولو كانت إحداهن فقط تحدثت لي مرة، لوجدتني منجذبًا لها لدرجة «التريل»..

كان الحب بالنسبة لي مثل الماء في الصيف، كلما سنحت لي الفرصة أنهل منه لكي أروي ظمأي.. ولم يكن لديَّ القدرة على التمييز بين الحب والإعجاب والتعاطف، وليس هناك ما يدلل على كلامي هذا أكثر من الحكاية التالية:

ففي العام الأول لي بالجامعة، تعرفتُ على إحدى قريبات والدتي.. فتاة قروية ساذجة لكنها تبدو مختلفة عن البنات اللائي عشت بينهن في قريتنا.. كانت رقيقة وبيضاء وحظها سيء.. فقد أُجبرت على الزواج من شاب قريب لها، وحكت لي أنها لا تُريده، فحاولت مساعدتها وإقناع أهلها ألا يتمموا هذه الزيجة، لكنني فشلت..

تزوجت البنت من قريبها، وبعد أيام قليلة هربت من بيت الزوجية مُحملة بأمراض نفسية وعدة كدمات وجروح..

ساعتها خلتني أحب هذه الفتاة، لم أكن أعرف أن هناك مشاعر أخرى ربما ربطت بيننا، فمؤكد أنني كنت متعاطفًا معها، لهذا قررت أن أتزوجها ورغم معارضة أبي فإنني عزمتُ ونفذتُ، فخطبتها بعد أيام من انتهاء العدة..

تلك القصة الغريبة انتهت بسرعة، فقد فسختُ خطبتي منها بعد نحو أسبوع واحد من ارتباطنا..

ولم تمر فترة طويلة حتى ارتبطت بفتاة مسيحية كنت ألتقيها في محاضرات اللغة الإيطالية - التي كنا ندرسها كلغة ثانية إلى جانب الإنجليزية..

اسمها أميرة جورج، عيناها واسعتان، ممتلئة القوام.. اعتقدت أنني أحبها ففكرت في الزواج منها..

لم يكن معي مليمًا للزواج، غير أنني لم أكن أفكر في شيء سوى في أن أطفأ شهوتي بالارتباط والحب!

لم أفكر في أن كل منا يدين بدين مختلف عن الآخر وأن عائلتها لن توافق على مثل زيجة هكذا.. لكن من قال إنه في هذا الوقت كان لديَّ عقل لأفكر به.. لقد كنت أسير بناءً على دوافع غريزية.

بل إنني لم أفكر إذا كانت ابنة العم جورج تبادلني الشعور نفسه أم لا..

رحت أختبر شعور أميرة نحوي فتيقنت أنها لا تراني سوى زميل دراسة، فكانت الصدمة.

والحقيقة أن أميرة رغم صدمتها لي فإنها قدمت لي خدمة جليلة، فقد كانت بمثابة الحبل السري الذي ربط بيني وبين «المسيحيين»، فقبلها لم تكن لي أية علاقة بالمسيحيين، خصوصا أن قريتي لم يكن بها مسيحي واحد، ورغم ذلك كنا نتبادل «أساطير» عنهم لا أعرف مصدرها، مثل أن لهم رائحة سيئة جدًا، وأن الكنائس تربي الأسود التي تلتهم أي مسيحي يغادر دينه لدين آخر..

وبالمناسبة أذكر أن أهل قريتنا كانت لهم علاقة بالمسيحيين محدودة للغاية، تتمثل في سفر بعضهم لمركز الصف، الذي تتبعه القرية، من أجل البحث عن حل لمشكلة ما تتعلق بالسحر والجن وأمور الربط والأعمال السفلية، فقد كانوا يقولون إن بالكنائس قساوسة قادرون على التواصل مع الجن وفك السحر.

بدأت أميرة تعرِّفني على زميلاتها وزملائها مثل بيشوي ودميانة وجيمي وماريان وشيرين وغيرهم، فأثار توطد علاقتي بالمسيحيين «غيرة» لدى زملائي الملتحين الذين ينتمون إلى تيارات دينية مثل «السلفيين»و«الإخوان»، ومن عجب أن أحدهم وكان يُدعى محمد عبد العظيم طالبني بقطع علاقتي بأميرة وزميلاتها، غير أنه في نهاية العام ارتبط بزميلة سافرة ترتدي الجينز والبادي المحذق، فسبحان مقلب القلوب!

تلاشى حبي لأميرة سريعًا، عندما قابلت إيمان..

فتاة طويلة بيضاء من غير سوء، ويبدو في تلك الفترة أن كلمة السر في جمال أي فتاة بالنسبة لي كان هو بياض البشرة، فأي بيضاء جميلة

بالضرورة!

وإيمان هذه حيرتني كثيرًا، فقد شغلت بالي منذ اليوم الأول الذي تعرفت عليها فيه.. تبدو من الوهلة الأولى طيبة وذكية، لكنها في الوقت ذاته قد تظهر الشر تجاه البعض..

كنا في السنة الثالثة حين طلبت مني إيمان أن أتقدم لخطبتها، فقلت لها إنني لا أملك شيئًا وإنني ما زلتُ طالبًا، فكيف لوالدها أن يوافق على ارتباطنا بشكل رسمي، لكنها أصرت وأخبرتني أن أباها سيزوجها أحد أقاربها.. هنا تداخلت الأمور، فعرضت عليها شرطًا غريبًا ومضحكًا لكي أتقدم لها في هذا الوقت فوافقت..

عرضتُ عليها أن تلاعبني «سناك» أو لعبة الثعبان الشهيرة التي كانت منتشرة في كل أجهزة «نوكيا» في تلك الأيام، فإذا تفوقت عليَّ هي تقدمت لها في الحال، وإن لم يكن وفزت أنا أجلنا الأمر لبعد التخرج..

لعبنا وفازت إيمان بـ«الجيم»، فذهبت لأخطبها من أبيها الذي ضحك ثم نصحني أن أكمل تعليمي أولًا، وانتهت القصة.

وما بين أول حب بالجامعة حتى إيمان هناك عشرات القصص من حكايات الحب «العبيطة»، التي كنت بطلًا لها، لدرجة أنهم كانو يقولون إنني «بحب على نفسي».

ضحك السنين

«إنجليزي دا يا مرسي؟».. كان هذا هو «الإيفيه» الأكثر تداولًا بين طلاب قسم اللغة الإنجليزية بكلة الآداب، خصوصا القادمون من «التعليم المجاني»، فقد كان «الدكاترة» يتحدثون إنجليزية مختلفة تمامًا عن تلك التي كنا نسمعها من مُدرسينا من الإعدادية حتى الثانوية.

كان الأستاذ سيد رمضان – مثلًا – يطفح كالمجاري إذا تحدث الإنجليزية، بينما هذه السيدة التي تدرس لنا مادة «**Linguistics**» كانت تغني طربًا إذا ما قارنا بينهما..

مفردات مختلفة.. ونطق مختلف..

حين كنت أستمع لأحد «الدكاترة» بالجامعة يتحدث الإنجليزية، لم أكن أفهم منه شيئًا، ليس لأنه ينطق بشكل خاطئ – لا سمح الله – بل لأنه يتحدث لغة لم أعتدها، ولهذا ظللت أضحك لمدة عام دراسي، كلما سمعتُ تلك اللغة وقارنتها بما كنت أسمعه من مدرسي الإعدادية والثانوية..

وفي الكلية درسنا موادًا لا حصر لها.. مثل الرواية والدراما (مسرح)

والصوتيات والنثر والشعر ولسانيات وغيرها، وللحق أقول إنه لم يكن هناك فارق بين المدرسة والجامعة، إلا في النطق، إذا كان لزامًا علينا حفظ «الملزمة» كي ننجح آخر العام، فلا مجال لفهم كتاب من ألف صفحة في مادة واحدة مليء بالمفردات والتراكيب الجديدة، وإذا قدر الله وفهمت مادة، فهناك خمسة عشر مادة أخرى!

وأخيرًا رغم المعاناة و«شيل» المواد، كُتب لي النجاح وتخرجت..

خلي السلاح صاحي

- مبروك يا أبو حافظ ابنك خد اللاسانس.
- الله يبارك فيك.
- طيب هو بسلامته هيبقى إيه؟
- يعني إيه.. قصدك إيه؟
- قصدي إن بتاع الحقوق بيشتغل محامي لما يتخرج.. وبتاع الهندسة مهندس.. والطب دكتور.. إنما بسلامته بقى حافظ هيشتغل إيه بالآداب دي؟ هيبقى «مؤدب» يعني.. هههههههههههه.
- هههههههههه دمك خفيف يا مضروب.. فز غور يلا.. أشكال تجيب الغم.

كان هذا جزءًا من حوار دار بين أبي وأحد الجيران، ورغم استسخاف أبي لما قاله هذا الجار، فإنه بالفعل سألني:

- هي آداب دي اللي يتخرج منها يشتغل إيه؟
- والله يا با ما أنا عارف.
- مش عارف! يا سنة سوخة يا ولاد.. يعني أصرف عليك دم قلبي،

وفي الآخر تقعد جمب أمك.. طب ما كان بلاها تعليم وكنت طلعت على عربية طوب ولا شوفنا لك شغلانة في محجر ولا صبي حلاق حتى..

- مش للدرجة دي يا حاج.. تفاءل شوية وربنا هيكرم.

كنت محظوظًا حين أصابني الدور، وذهبت للخدمة العسكرية، فحصلتُ على حجة أُدافع بها عن نفسي أمام من يسألوني عن «عملي»، فجندت لمدة عام في رفح بسيناء..

في سيناء قابلتُ الكثير من أبناء القبائل (البدو)، ولم يكن في نفسي تجاههم سوى ما حفظته من معلومات لا أعرف مصدرها، وهي أن كل بدوي هو خائن لمصر وعميل لليهود، لهذا التزمت الحذر في تعاملاتي معهم، إلى أن قابلت عواد.

و«عواد» شاب بدوي في مثل سني، ينتمي لواحدة من أكبر القبائل في شمال سيناء، ولديه سيارة دفع رباعي، وهناك يطلقون عليها «المارادونا»..

بدأت معرفتي به، في أثناء حضوري فرح بدوي دُعينا له أنا وعدد من أفراد الكتيبة عن طريق الشيخ سالم وهو مسئول توريد الأغذية والمشروبات للوحدة التي أعمل بها، فقد كانت ابنته العروس..

كان عواد حريصًا على «مُضايفتنا»، فلم تنقطع عنا أكواب الشاي وفناجين القهوة والسجائر، فضلًا عن الطعام المُتمثل في صينية أرز كبيرة مكللة بلحم الغنم..

ومن هنا بدأت معرفتي بعواد فصرنا أصدقاء، إلى أن جاء يوم وأبلغني عواد بأمر خطير:

– شوف يا حافظ بدي أحكي معك في موضوع.
– تحت أمرك.
– فيه تاجر يهودي بده يدخل مصلحة..
– نعم؟ يهودي ومصلحة! يا عم ماليش دعوة بالكلام ده أنت هتودينا في داهية.
– يا أخي صبرك عليَّ.. أنا ما قولت نساعده..
– أومال إيه؟
– أنا بدي أبلغ الحكومة بس خايف يقبضوا عليَّ..
– يقبضوا عليك إزاي ده أنت هتخدم البلد!
– والله ما حدا يضمن شي.. وياما ناس منا ضاعوا بدون سبب.
– مش ممكن، وهم هيستفيدوا إيه؟
– يا خي دايمًا نحنا مشكوك فينا!
– يا أخي بلاش مبالغة.. بس أقولك الصراحة أنا دايمًا أسمع أنكم خونة علشان كده الحكومة معذورة..
– يا حافظ هادا كلام ما هو صحيح.. طيب تعرف زمان.. عام 1968 كان فيه فرصة كبيرة لو البدو كان بدهم يبيعوا بلدهم مصر وياخدوا سينا دولة لوحدهم، لكنهم رفضوا.
– إزاي؟
– اليهود عملوا مؤتمرا دوليا وطلبوا من مشايخنا يقولوا قدام العالم إنهم موعايزين مصر وعايزين دولة مستقلة.. لكن الشيخ سالم الهرش

الله يرحمه وقف قدام العالم كله وقال إن البدو ليهم شيخ اسمه جمال عبد الناصر، ولو هو قال سينا تنفصل يبقى إحنا نقول.. وساعتها اليهود كانوا هيولعوا فيه.. وهادي حكاية من مليون حكاية بس ما حدا بيقول كلمة زين في حقنا.. هادا غير أن لو حدا فينا عدى على كمين يعاملوه كأنه جاسوس..

بعدها حكى لي عواد عن مُهرب اسمه بن يعلون عرض عليه مليون جنيه لمساعدته في تهريب سلاح من إسرائيل لمصر عن طريق جبل الحلال، وقمت أنا بإبلاغ قيادتي بالكتيبة وقبض على بن يعلون هذا، وأُرسل للقاهرة وسُجن هناك بعد محاكمته، إلا أنه أفرج عنه بعد ذلك لأسباب لا أعلمها.

والغريب أنه قُبض على عواد فيما بعد، بدعوى أنه عضو بعصابة دولية تعمل في تهريب السلاح والمخدرات، وسُجن لثلاث شهور ذاق خلالها صنوف العذاب، حتى أُفرج عنه!

قف للمعلم.. ياض

انتهت فترة تجنيدي وعُدت لقريتي، لتبدأ معاناتي مع رحلة البحث عن وظيفة.

طلب مني أبي أن أذهب معه لأحد أقاربنا في مصر القديمة، وهو عضو مجلس الشعب عله يساعدني في العمل، غير أنني تقمصت دور الفتى العصامي، الذي يُريد بناء نفسه بنفسه دون الاعتماد على واسطة، فقال لي أبي إنني «أقرع ونزهي» وإنني «عيل فقري»، وتركني لحالي بعدما صبَّ عليَّ كل ما أوتي من غضب.

قطعًا لم أستسلم، وقررت العمل مدرسًا، فذهبت للإدارة التعليمية بالمركز، ورحت أتردد على المكان قرابة شهرين، حتى تمكنت بفضل الله تعالى من الحصول على موافقة بالعمل مدرسًا بالحصة في المدرسة الإعدادية بقريتنا، فرحبتُ وقلتُ «أول الغيث قطرة»..

في المدرسة قابلني مديرها بقرف، وأمسك الورقة التي حصلت عليها من الإدارة التعليمية:

- أهلًا يا أستاذ حافظ.. أنت درست في أي مكان قبل كده؟

– للأسف والله دي أول مرة، أصلي لسه مخلص جيش..
– تمام تمام.. طيب أنت تعرف إيه عن التدريس في مدارس الحكومة؟
– لأ عادي يعني.. ما أنا سيادتك كنت تلميذ..
– ههههههههههههه تلميذ! لأ الموضوع مختلف تمامًا..
– أنا من إيدك دي لإيديك دي.. فهمني.
– طيب أنت الجواب اللي معاك من المديرية بيقول إنك هتشتغل معانا بالحصة، واللي متاح دلوقتي فصل واحد يعني خمس حصص في الأسبوع، أي عشرين في الشهر، والحصة باتنين جنيه، يعني مرتبك هيبقى أربعين جنيه..
– أربعين جنيه؟
– أيوه أومال حضرتك كنت مفكر إيه!
– بس دول مايجبوش عيش حاف حتى..
– علشان كده أنا سألتك تعرف إيه عن التدريس في الحكومي.. بص يا حافظ أنت زي ابني وأنا مش هسيبك كده.
– ربنا يكرمك يا فندم.. أيوه اعتبرني زي ابن حضرتك.

مشكورًا أفهمني المدير أنه ليس هناك مدرس يكتفي بما يحصل عليه من راتب حكومي، وقال لي إنني يمكنني أن أُكون ثروة طائلة من الدروس الخصوصية والمجموعات.

– علشان كده أنا قررت أديك فصل تانية رابع، وده فيه 70 عيل.. كلهم هيبقوا عندك في المجموعة وهتاخد من كل واحد فيهم 10 جنيه في

الشهر يعني 700 جنيه كويسين؟

- الحمد لله فضل وعدل..

- أه بس إحنا لينا نسبة..

- نسبة؟

- أيوه.. ٪50 للمدرسة..

- مش فاهم..

- أفهمك.. أنت أول كل شهر هتسدد للمدرسة 350 جنيهًا، وأنت بقى تدي العيال مجموعة تقوية تلم منهم 700 جنيه، يعني الصافي 350 ده غير الدروس الخصوصية اللي بعض التلاميذ هياخدوها عندك في بيوتهم أو ممكن عندك أنت في البيت، ودول يا بطل مش هنقاسمك فيهم.. حلال عليك.. ده طبعا غير الـ40 جنيها مرتبك من الوزارة، يعني العملية هتلعب معاك.

مضطرًا، قبلتُ عرض الأستاذ جبر مدير المدرسة، وبدأ العام الدراسي..

70 تلميذًا أمامي يتكومون كأجولة الفحم.. لحم على لحم في فصل مشترك (بنين وبنات)..

حاولت جاهدًا أن أتعرف على أسماء التلاميذ، غير أن مسعاي فشل في بداية الأمر، وانقضى أول شهر لي وقد تعرفت على عدد محدود منهم: صابر ومحمود وحسين ومنى ورجب وفادية وميرفت وسلامة ومؤمن وهدى وعبد الله.. وغيرهم.

كانت أُولى العقبات أمامي حينما اكتشفت أن تلاميذ فصلي لا يعرفون العربية، ومعظمهم لا يحفظ حتى الحروف الأبجدية.. فقد سألت أحدهم في أول حصة لي..

- What is your name?
- محمود
- How are you?
- I am 13 years old
- لا يا حبيبي.. أنا بسألك How are you?
- أيوه يا أستاذ ما أنا رديت I am 13 years old.
- لا يا حودة.. طيب معلش اقعد.. حد تاني يعرف يجاوبني؟

رفعت إحدى التلميذات يدها..

- أنا يا «ميسطر»..
- ميسطر؟ اسمها مستر.. المهم جاوبي يا شاطرة يللا..
- I am Egyptian
- نعم؟ اقعدي اقعدي.. حد تاني يجاوبني؟

تطوع تلميذ آخر، فقال:

- I go to school by bicycle

- عاودت السؤال أكثر من مرة، وفي كل مرة كان يأتيني جواب مختلف، إلى أن وقفت طالبة تدعى هدى، وأجابت بشكل صحيح، ففرحت غير أن فرحتي لم تدم طويلًا حين أخبرتني أنها تحفظ كل الإجابات، لكنها

طلبت مني أن أسأل الأسئلة بترتيبها الذي حفظوها في السنوات الماضية، وشرحت لي أن الأستاذ عكاشة - أحد مدرسي اللغة الإنجليزية بالمدرسة - حفظهم ردود هذه الأسئلة، بعدما وضع لكل سؤال فيهم رقم، فمثلًا السؤال رقم واحد هو (What is your name?) أما السؤال (How are you?) فهو السؤال رقم 5 لهذا لم يستطع أي من التلاميذ الرد بشكل صحيح!

فدفعني هذا لأن أتوقف عن تدريس الإنجليزية لهم، وأن أبدأ رحلة تحفيظ تلاميذ فصل «تانية رابع «الأبجدية العربية أولًا.. فلقد كان داخلي إيمان راسخ أن من لا يعرف «العربي» فحتمًا لن يكن له علاقة بلغة أخرى في يوم من الأيام، غير أن فعلتي هذه كادت تتسبب في فصلي من المدرسة.

فوجئت في أحد الأيام بولي أمر طالبة يدخل عليَّ الفصل..

- سلامو عليكو يا أفندي.

- وعليكم السلام يا حاج.

- هو حضرتك أستاذ إيه؟

- حافظ.. أستاذ الإنجليزي.

- يعني مش عربي!

- لا أنا بدرس للولاد إنجليزي.

- طيب لما أنت بتاع إنجليزي ولا مؤاخذة بتعلم العيال عربي ليه؟ مش تراعي ربنا!

- يا حاج العيال ضايعين في العربي ماحدش فيهم حافظ حتى

الحروف..

- طيب وأنت مالك بلا قافية!

- ما هو مش ممكن عيل مايعرفش يقرأ عربي هيعرف يتكلم إنجليزي..

- صراحة كده أنت مش نافع وأنا ليا كلام تاني مع مدير المدرسة..

خرج الرجل وعاد وبصحبته الأستاذ جبر، الذي طلب مني الالتزام بالمنهج وشرح دروس اللغة الإنجليزية للتلاميذ، حتى وإن لم يفهم منهم أحد شيئًا..

- بس يا فندم مش هينفع كده..

- أستاذ حافظ من فضلك نفذ اللي بقول عليه أو اتفضل شوفلك مدرسة تانية.

التفت مدير المدرسة لولي أمر التلميذة وقال:

- ماتحملش هم يا حاج سيد.. الموضوع ده مش هيتكرر تاني.. بس ما تخدناش في دوكة، فين دكر البط اللي وعدتني بيه؟

- الليلة يكون في بيتك دكرين بط يا أستاذ جبر.

خرج الحاج سيد بعد أن رمقني بنظرة اخترقت قلبي مثل سكين بارد، بينما التلاميذ يضحكون، فيما تلجمتُ أنا وكأن عقلي توقف عن التفكير، ولم يخرجني من هذه الحالة سوى كلام الأستاذ جبر..

- هاه يا أستاذنا فين المعلوم؟

- معلوم إيه يا أستاذ جبر؟

- الفلوس..

- فلوس؟

- أيوه يا ابني، النهاردة أول الشهر ومطلوب منك 350 جنيها زي ما اتفقنا..

- بس أنا مادتش حد دروس، ولسه ما بدأتش المجموعة..

- أومال كنت بتعمل إيه طول الشهر؟

- يا فندم ما حضرتك شايف..

- كنت بتعلمهم عربي مش كده؟

- أيوه..

- شوف يا ابني الكلام ده مش هعيده تاني.. شوف مصلحتك وخلي الدنيا ماشية، هم العيال كده لا هيتعلموا ولا هيتنيلوا.. أنت اعمل اللي عليك وسيبها على الله.. مش هكررها تاني الشهر ده سماح، لكن الشهر الجاي هتدفع الفلوس أو تسيب المدرسة.

فيلم سيما

لم أخلق لأكون مدرسًا، لهذا لم يدم بقائي في تلك المدرسة الإعدادية بقريتنا، وانتقلت إلى القاهرة لأستقر في مسكن بمنطقة السيدة زينب يعيش فيه مجموعة من زملاء الجامعة، وقد أعفوني من دفع نصيبي من الإيجار حتى أجد عملًا..

بحثتُ كثيرًا عن عمل لكني لم أوفق، إلى أن كان اليوم الموعود..

فرح قريبة زميلنا «علي»، الذي أُقيم بفندق شيراتون بالدقي، وهناك شاهدت ملاكًا يمشي بين المعازيم.. نسخة مصرية من نجمات السينما العالمية.. فتاة بهية ساحرة مضيئة.. تشع نورًا ألهب مُخيلات كل الحضور..

كانت تتنقل من هنا لهناك مثل فراشة بين الزهور، ولم تكن ترقص مثل باقي الفتيات اللائي يحضرن الأفراح بحثًا عن عريس..

إنها منى سالم، ابنة محمد سالم، ملك العقارات المعروف.. عرفتُ ذلك فيما بعد.

في تلك اللية تعرفتُ على منى بطريقة سينمائية خالصة، فقد سقطت نجفة كبيرة من السقف وكادت تودي بحياتها لولا إسراعي وإبعاد منى،

فزلت النجفة لتتفتت إلى قطع كريستال صغيرة، فبديت مثل أبطال الأفلام الهندية..

شكرني والد منى كثيرًا، وأعطاني كارته الشخصي وطلب مني الحضور في اليوم التالي إلى مكتبه، وذلك بعدم سجل رقم هاتفي المحمول، وقال إنه سوف ينتظرني وإن لم أحضر فسوف يتصل بي ويأتي لي هو..

في اليوم التالي ذهبت لمكتب الرجل دون تردد، فقد كان مبلغ حلمي أن أرى منى مرة ثانية، وقد استقبلتني سكرتيرة الرجل بود، وكأني وزير الصحة، ثم أدخلتني سريعًا إلى سالم بك، الذي تهلل وجهه وهم يستقبلني..

- أهلًا بالبطل.. حافظ مش كده؟

- أيوه يا فندم.

- أنا مش عارف أشكرك إزاي، ومع ذلك مش هشكرك إنما هطلب منك خدمة وأرجو أنك تساعدني..

- أنا أساعد حضرتك؟ تحت أمرك يا فندم على كل حال..

- مش هطول عليك.. أنا محتاج لك معايا..

- زي ما قولت لحضرتك، تحت أمرك.

- طيب مش تعرف الأول عايزك في إيه؟

- يا سالم بيه أكيد أي حاجة مع حضرتك هتكون حاجة كويسة..

- شوف يا حافظ.. أنا شغال عندي ألف موظف، ومع ذلك ملاقتش في حد اللي لقيته فيك إمبارح.. أنت كنت هتضحي بنفسك علشان بنتي..

- بس ده عادي أي حد مكاني كان هيعمل كده..

- والرد ده هيخليني متمسك بيك أكتر.. أنت راجل شهم ومتربي.. ما دام شايف أن التضحية دي شيء عادي يبقى أنت اللي بدور عليه..

- بتدور عليه؟

وكأني في حلم..

قرر سالم بك أن يُعينني مساعدًا له براتب خيالي 2000 دولار..

طبعًا لم أتردد في قبول الوظيفة، فأنا عاطل، والأهم من ذلك أن قُربي من الرجل سيُمكنني حتمًا من رؤية منى..

الحب الحرام

الحب والجنس في نظري لا يجتمعان، فإذا أحببت فتاة فإنني لا أتخيلها عارية مثلًا ولا أحلم أني أضاجعها أو حتى ألمسها، ولا أعرف كيف يُقبل الرجل على معاشرة زوجته جنسيًا، فلقد ارتبط الجنس في خيالي بالحرام، وربما لا أجد متعة في ممارسة الجنس مع امرأة هي حلالي وكل الناس تعرف أن بيني وبينها علاقة رسمية..

لست شاذًا في تفكيري هذا، فهكذا تربيت..

منذ كنتُ طفلًا وكل من حولي يقولون إن الجنس حرام، لم يقل لي أحدهم إنه حلال إذا ما تم في ظروفه التي شرعها الله، أي من خلال علاقة رسمية بين رجل وامرأة على يد مأذون أو قسيس أو حاخام، أو حتى رجل صرحت له الدولة عبر قوانينها بعقد القران بين ذكر وأنثى..

لا أعرف لم أذكر ذلك في هذا الوقت تحديدًا، لكن ربما لأنني طيلة الفترة الماضية وأنا أحلم بالارتباط بمنى ابنة صاحب الشغل، تلك التي أنقذتها من الموت المحقق في حفل زواج شقيقة زميلنا بالجامعة..

أنا أحب منى.. نعم أُحبها، لكنه حب بلا شهوة.. لا أشتهي جسدها المثالي.. كل ما أحلم به أن تربطنا علاقة أبدية لا أفترق عنها أبدًا..

ربما ضحكت لي الدنيا حينما عيني والدها في وظيفتي هذه براتب لم أكن حتى أحلم به، وقد قلت إن الدنيا لن تضحك لي مرة ثانية، لكنها زادت من كرمها معي حينما اكتشفت أن منى تُبادلني حبًا بحب.. هي أيضًا تُريدني..

فكرتُ في أن أفاتح والدها في الأمر، لكني خشيتُ أن يُسيء بي الظن ويعتقد أنني طامع في ماله، وهذا ما صرحت به إلى منى التي ضحكت وأخبرتني أن والدها يقول فيَّ شعر، بل إنه تمنى لو أتزوج من ابنته!

والأكثر من ذلك أن منى نفسها أقسمت لي أن والدها في انتظار إشارة مني، وأنه لولا العيب لفاتحني هو في أمر زواجنا، ولم يكن أمامي بعد هذا الكلام إلا أن أذهب إلى سالم بك لأخطب منه منى:

- يا حافظ يابني أنا مش هخبي عليك.. لو ماكنتش أنت طلبت إيد منى كنت أنا طلبت إيدك..

- نعم!

- ماتفهمنيش غلط.. قصدي يعني كنت طلبت منك تتجوزها.. والمثل بيقول إيه.. اخطب لبنتك ولا تخطبش لابنك..

- يا سالم بيه أنت بتطوق رقبتي بكلامك ده.. وأوعد حضرتك إني أسعد منى وأشيلها في حباب عينيه..

- عارف يا حافظ ومتأكد.. ما هو اللي يضحي بحياته علشان حد مايعرفوش أنا أستأمنه على رقبتي مش بس على مالي وبنتي..

وكأنني في حلم طويل، تزوجت أنا ومنى في غضون ثلاثة أشهر، وأسند لي حماي إدارة استثماراته، وذلك رغم معارضة ابن أخيه.. وليد.

فكما يحدث في الأفلام، يرى غريمي وليد أنه كان الأجدر بالزواج من منى، ليفوز بأملاك عمه، لكنني حرمته من ذلك، ولو دون قصد.

حاول وليد كثيرًا أن يمنع هذه الزيجة، ولما فشل تظاهر بمباركته، ويبدو أنه قرر ذلك حتى لا يخسر كل شيء ويطرده عمه من وظيفته كمدير لأحد مصانعه.

وبعيدًا عن وليد، كان زواجي محل حسد الجميع، غير أن أحدًا لم يكن يعلم بمأساتي..

وتمثلت مأساتي في أنني ورغم حبي لمنى فإنني لم أكن أشعر بمتعة في فراشها، فهي زوجتي والكل يعلم أنها بين أحضاني، ولو مارست معها الجنس ليل نهار فلن يأتي أحدهم ويعيب عليَّ في ذلك..

إذن كيف أشعر بمتعة، وأنا لست خائفًا من اكتشاف أمرنا، ولست متوجسًا من أن يقتحم أحدهم علينا خلوتنا.. فهكذا تربيت منذ كنت طفلًا، الجنس حرام، فكيف يكون اليوم حلالًا!

مرت أسابيع وأنا أضاجع منى لكن بلا أي رغبة، فقط لأداء واجبي، وهذا ما دفع زوجتي لأن تتحدث معي في هذا الأمر:

- حافظ.
- نعم.
- أنا عايزة أتكلم معاك..
- طبعًا يا حبيبتي اتفضلي..
- أنا ماعنديش شك واحد في المليون أنك بتحبني..

– ربنا يعلم أنت بالنسبة لي إيه.. ده أنت الهوا اللي بتنفسه..

– زي ما قلتلك أنا ماعنديش شك في كده.. لكن..

– لكن إيه..

– مش عارفة أقولها لك إزاي..

– حبيبتي اتكلمي.. أنتِ مراتي ومافيش بنا حواجز..

– لأ فيه يا حافظ.. أنا طول الفترة اللي فاتت مش حاسة أنك عايزني.. بتبقى نايم معايا لكن عقلك وقلبك مش معايا..

– ليه بتقولي كده.. والله العظيم أنا بحبك ومافيش حد تاني في حياتي..

– ما هو ده اللي مجنني، أنا متأكدة من إخلاصك.. لكن مش قادرة أعيش كده..

– منى أنا مش عارف أقولك إيه.. أنتِ بالنسبة لي كل حاجة، ويمكن اللي بيحصل ده بسبب انشغالي بالمجموعة والشغل الجديد، أنتِ عارفة الطلبات كل يوم بتزيد وتوسعات جديدة، وأنا مش شاطر قوي.. حتى دراستي مالهاش علاقة بشغلي مع أبوكي..

– حافظ مش عيب لو رحنا لدكتور يشوف إيه المشكلة..

– دكتور؟ أنت بتقولي إيه! أنا مش مريض

– ماقولتش مريض.. بس الضغوط وقرف الحياة ممكن يكون ليهم تأثير في حالتك دي..

انتهى نقاشنا دون أن نصل لحل، ولا أُنكر أن كلام منى بشأن الذهاب لطبيب دفعني للتفكير في الأمر.

نيجي مع العمي ضباش

لم يستسلم وليد لهزيمته أمامي في مباراة فزتُ أنا فيها بقلب منى، التي اختارتني زوجًا لها، ولهذا كان يتحين الفرصة تلو الأخرى كي يُثبت أنني لستُ أهلًا لا بالارتباط بها ولا حتى أهلًا لوظيفتي المرموقة لدى أبيها كمساعد له في إدارة مجموعة شركاته.

وشخصيًا كنتُ أقدم له خدمات مجانية بسبب قلة خبرتي في الإدارة، ولم يكن هو ليتباطئ في تسديد مثل هذا الكرات السهلة في مرماي، وكم من مرة استغل أخطائي ليُدلل لعمه على أنه كان مخطئا حين أسند لي تلك الوظيفة، وكذلك موافقته على زواجي من ابنته..

لكن حماي – والشهادة لله – لم يكن يُعيره اهتمامًا، بل هدد وليد بطرده من جنته إذا لم يبتعد عن طريقي..

وفي أحد الأيام سافر حماي إلى أوروبا للعلاج، فهو يعاني ضيقا في الشريان التاجي، وقلبه يحتاج إلى تدخل جراحي سريع، ولهذا اصطحب زوجتي معه وسافر إلى لندن، وبالطبع كان في تلك الفترة بعيدًا كل البعد عن شئون العمل، فحرر لي توكيلًا عامًا لإدارة كل أملاكه في غيابه..

هنا أراد وليد ألا يُضيع الفرصة كي يتخلص مني، فأرسل لي أحد موظفي الشركة، وهو متخصص في شئون البورصة، وعرض عليَّ هذا الموظف أمر إحدى الشركات، التي حقق سهمها ربحًا كبيرًا في وقت قياسي، رغم أنها شركة خاسرة وكادت تُفلس قبل سنوات..

سألني هذا الموظف إن كان لي رأي في أمر هذه الشركة، وهل نبيع حصتنا من الأسهم فيها استغلالًا للأرباح التي حققتها، أم نشتري أسهمًا جديدة على اعتبار أنها شركة صاعدة..

أكلتني الحيرة، فلست متخصصًا في شئون البورصة، لهذا استشرت ذلك الموظف، فقال لي إنه لا يمكنه نصحي في هذا الأمر، وأكد لي أنه يخشي أن يقول شيئًا ثم يتضح خطأه فيما بعد، فطلبتُ منه أن يفسر لي الوضع بشكل علمي، فقال إن هذه الشركة ارتفع سهمها على غير العادة، ومؤكد أنه سيهبط في المستقبل القريب.. وتابع:

– بصراحة في حالتنا دي الناس بتبيع علشان تستغل ارتفاع سعر السهم، اللي مؤكد إنه هينزل قريب جدًا..

– يعني تنصحني أني أبيع؟

– ماقدرش أقول كده، خصوصًا أن الشركة دي عزيزة على قلب سالم بيه جدًا، وأعتقد إنه لو رجع ولقى حضرتك بعتها ممكن يزعل..

– طيب خلاص يبقى نسيبها..

– بس برضو دي مخاطرة، ممكن سهمها ينهار ونخسر كتير..

– أيوه يعني أبيع ولا لأ؟ أنت حيرتني..

- والله يا فندم القرار قرارك..
- بقولك إيه امشي من وشي السعادي أنت هتنقطني..
- أوامرك يا حافظ بيه.. بس لازم تديني «أوردر» أعمل إيه دلوقتي في الشركة وأسهمها..
- اسمع يا نيلة أنت.. أنا همشي زي ما أبويا علمني.. دايمًا يقولي العب على الحصان الكسبان.. واللي تغلب به العب به..
- مش فاهم يا فندم.
- أفهمك.. إحنا لا مش هنبيع أسهم إحنا هنشتري..
- ماشي يا حافظ بيه.. بس دي مخاطرة..
- توكل على الله..

بالفعل اشترينا عشرة آلاف سهم جديد من الشركة نفسها، فأصبحت حصتنا فيها ما يفوق 51 ٪، وهو ما يعني أن مجموعتنا باتت صاحبة النصيب الأكبر ومن حقنا إدارة الشركة..

عاد حماي من رحلة علاجه بعد نجاح العملية، وحين علم بأمر شرائي أسهم جديدة بالشركة كاد يجن، وأخبرني أن «أصغر عيل في البورصة» يعلم أنه في مثل هذه الحالة كان يجب أن نبيع جزءا كبيرا من الأسهم لا أن نشتري أسهمًا جديدة، وشعرت أنه بدأ يعي الخطأ الذي وقع فيه حين أسند إليَّ عملية إدارة كل أعماله..

مرت ثلاثة أشهر ساءت فيها علاقتي بحماي، وبدأ نجم وليد يلمع في سمائه، غير أن أمرًا عجيبًا حدث، فكان بمثابة طوق النجاة لي..

لقد ارتفع سهم الشركة مجددًا، وحقق ربحًا غير معقول، وهو ما دفع مستثمرون جدد لضخ أموال فيها، لتصبح واحدة من أهم الشركات في البورصة، فتقدمت مجموعة دولية لشراء جزء من الأسهم مقابل عرض مالي خيالي، فوافق سالم بك، وحصل علاوة على ذلك على حق الاحتفاظ بإدارة هذه الشركة، التي عرفت فيما بعد أنها كانت أول شركة يؤسسها الرجل في بداية حياته، ولهذا فإن لها في قلبه «مكانة» خاصة..

وهكذا كسبتُ جولة أمام منافسي وليد، الذي بدا وكأنه أصيب بالضربة القاضية، وكان قريبًا من مغادرة الحلبة ليتركها لي وحدي..

ومنذ هذا اليوم أضيف قانون جديد لقوانين البورصة وهو «تيجي مع العمي ضباش»!

دكتور الحقني

كي لا أخسر زوجتي، قررتُ أن أكسر كل التابوهات التي تمنع رجلًا من الذهب إلى طبيب أمراض ذكورة، فقد فكرتُ كثيرًا قبل أن أُقدم على هذه الخطوة، وخشيتُ أن يعلم أحد بالأمر فتصير فضيحة، فنحن في مجتمع يعتبر المرض «عيب»، فيجرس المريض بدلًا من أن يُعان على مرضه!

وها أنا في عيادة الدكتور فخري عبد الله، ربما ليس هو الأشهر في مجال عمله، لكنه الأبعد عن نطاق حياتي.. اخترته بعيدًا حتى لا أُصادف أحدًا يراني عنده، فيصير الأمر فضيحة، بل وكنت متخفيًا في نظارة سوداء و«برنيطة» تشبه تلك التي يعتمرها الخواجات..

سجلتُ نفسي باسم مستعار بالعيادة، وقصدت من ذلك تأمين سرية أمري هذا، وخلال الدقائق التي جلستها منتظرًا دوري، سمعت حكايات وحكايات.. فهذا رجل ميسور الحال يبحث عن الخلفة منذ عشر سنوات.. وهذا شاب لا يميل للعلاقات السوية ولم يصادق أنثى مطلقًا.. وهذا شاب فحل لكنه كلما اقترب من عروسه أصيب بنكسة، فقالوا له إنه «مربوط».. وهذا رجل لديه إفراط ورغبة في ممارسة العلاقة الزوجية ليل نهار مما دفع

زوجته للهرب من المنزل.. وهذا وهذا وذاك..

وحين دخلتُ إلى الطبيب جلست أمامه، وبدأ يتحدث إليَّ وهو يُطالع ورقة مدون بها بعض الأسماء على مكتبه..

- أستاذ محمود التاجي.. أهلًا بيك.. هاه يا بطل مشكلتك إيه؟

لم أرد على الرجل مما دعاه لأن يكرر «أستاذ محمود.. أستاذ محمود».. وهنا انتبهت إلى أنه يناديني أنا، فأنا الآن «محمود» ولستُ «حافظ»..

- أستاذ محمود..

- نعم..

- بقالي ساعة بنادي على حضرتك.. أنتِ سرحت فين يا راجل؟

- سوري.. حضرتك يا دكتور عارف المشاكل والحياة..

- طبعًا طبعًا، ولا يهمك.. المهم دلوقتي تقولي إيه هي مشكلتك..

- مش عارف أقول إيه يا دكتور..

- أبدأ بس أنت كده وأنا هساعدك..

- أنا متجوز من فترة كبيرة..

- ومابتعرفش؟

- مابعرفش إيه يا دكتور!

- لا ماتخدش في بالك .. كمل.. كمل..

- العلاقة بيني وبين مراتي..

- متوترة؟

- لا مش كده..

- أومال إيه؟

- مش عارف.. ما أنا قلت من الأول أنك مش عارف!

- لا يا دكتور أنا بعرف وكل حاجة.. بس ما مابحسش بأي رغبة أو إثارة وأنا معاها في السرير.. بحس أني بقضي واجب وخلاص..

- طيب ليك علاقات تانية..

- خالص..

- بتمارس العادة السرية؟

عندها تلون وجهي بمائة لون، واحترت لم أجد إجابة، فلاحظ الطبيب انزعاجي مما دفعه لأن يهدئني..

- على فكرة، ما تتكسفش دي حاجة عادية.. كتير من الأزواج يلجأون للعادة السرية مع أنهم بيبقوا كويسين قوي مع زوجاتهم..

- طيب وده علاجه إيه يا دكتور؟

- لا الأول نشوف سببه إيه، وده هيساعدنا في إيجاد العلاج المناسب..

- يا ريت يا دكتور.. أنا بجد حياتي صعبة جدًا، ومراتي بدأت تشك أني على علاقة بواحدة تانية..

- طيب ممكن تحكيلي عن طفولتك..

لأكثر من ساعة رحت أسرد للدكتور فخري بعضًا من تفاصيل طفولتي بقريتنا الصغيرة، وعلاقاتي مع كل من كان حولي، وأخذ هو يدون بعض الملاحظات في الأوراق التي أمامه.

وبعد أن انتهيت، قال لي الدكتور إنه سوف يدرس حالتي، وحدد لي

موعدًا بعد أسبوع للبدء في علاجي، ولاحظت أنه كان متحمسًا للغاية، فمضيت في طريقي..

لم أخبر زوجتي بأمر ذهابي للطبيب، فقد كنت حريصًا على ألا يشيع الأمر، حتى داخل بيتي، فنحن هكذا.. رجال لا نقبل أن يرانا أحد مرضى، خصوصا لو كان المرض خاصًا بالذكورة والجنس..

أما في العمل، فقد كان الأمر مثيرًا للغاية، إذ لاحظت تغيرًا في تعامل وليد ابن عم زوجتي، فقد بدا الرجل لطيفًا بشكل لم أعهده، وكأنه يتعمد إظهار ودِه هذا أمام منى ووالدها..

- وليد.. هو فيه إيه؟

- فيه إيه في إيه يا حافظ بيه؟

- وكمان حافظ بيه! ده أنت عمرك ما قلتلي حتى «حافظ» بنفس..

- يا صديقي أنا حسبتها بالعقل.. أنت جوز بنت عمي وبكره هتبقى أهم واحد في المجموعة بعد وفاة عمي - بعد عمر طويل -إن شاء الله.. طيب ليه أخسرك..

- يا سلام!

- أي والله هو كده.. قلت إيه؟

- في إيه؟

- إننا نبقى أصحاب..

- مع أني متأكد أن فيه إنَّ ورا الحكاية، بس ماشي.. خلينا أصحاب يا وليد «بيه»..

مر أسبوع منذ زيارتي للدكتور فخري، وفي الميعاد المحدد ذهبتُ لعيادته، ورغم وجود زبائن آخرين، فإن الممرضة وقفت فور رؤيتها لي، وطلبت مني أن أدخل أولًا للدكتور، بعدما أستأذنت من الحضور، وقالت لهم إنني صديق الدكتور ولن أخذ من وقته الكثير.

استقبلني فخري بابتسامة عريضة وهو يرحب بي..

- أهلًا أهلًا محمود بيه..

- أهلُا بحضرتك يا دكتور..

- طبعًا أنت مستغرب أنك دخلت قبل الحالات الموجودة..

- ده صحيح..

- شوف يا حافظ بيه..

- حافظ؟

تزرق وجه الدكتور، حين لاحظ اندهاشي من ذكره لاسمي الحقيقي، رغم أنني سجلت نفسي باسم مستعار لدى زيارتي الأولى للعيادة، فسارع وهو يحاول أن يُخفي شيئًا..

- معلش آسف أصل الحالة اللي كانت قبل حضرتك لمهندس اسمه حافظ، وحضرتك عارف أن كل يوم بقابل حالات كتير، وكمان الزهايمر الله يلعنه باينه صابني..

تظاهرت أنني بلعتُ تلك الكذبة، فقلت له ألا يشغل باله وأن «الغلط مردود»..

- طيب بصراحة كده يا محمود بيه علاجك مش عندي.. بعد دراستي

للحالة لقيت أنك محتاج دكتور نفساني..

- بس أنا مش عندي مشاكل نفسية..

- معظم الأمراض العضوية سببها نفسي يا صديقي، وبعدين أنت أصلًا ماعندكش حاجة، ده أنت ما شاء الله زي الفل بس محتاج تتظبط..

- وحضرتك تنصحني بإيه يا دكتور؟

- أنا هديك عنوان دكتورة شاطرة جدًا، والميزة أنها فاتحة العيادة في بيتها بشكل مايخليش حد يشك في أنك بتردد على عيادة طب نفسي علشان مايبقاش فيه ضغوط عليك وربنا يفك عقدتك..

- بيتها؟

- أيوه ده هيكون أفضل.. مش هتحس أنك في عيادة.. وصدقني الدنيا هتبقى زي الفل وهتدعيلي..

غادرت العيادة وأنا أقلب بين يدي تلك الورقة التي دون فيها الدكتور فخري عنوان ورقم موبايل الدكتورة سمر المصري، وكنت قد قررت أن أنسى الأمر، فالريبة تملأ صدري تجاه هذا الأمر، خصوصًا بعدما ناداني الدكتور فخري باسمي الذي لا يعرفه أحد في العيادة.

في شقة سمر

حذفت فكرة الذهاب إلى العيادة، أو بالأحرى بيت الدكتورة سمر من «دماغي»، فقد كان الشك يُساورني في الأمر كله، ومع ذلك كانت لديَّ رغبة في أن أذهب لطبيب آخر لعلي أجد لديه الدواء، فهذه منى زوجتي الحيرة تأكلها والشك ينمو في صدرها مثل شجرة لبلاب، بينما نظرات أبيها اللائمة تُطاردني ليل نهار وكأنه يقول «كيف تفعل ذلك بابنتي وأنا من آواك ومنحك فرصًا لم تكن تحلم بها.. أهذا رد الجميل!»، لهذا قررت أن أعاود الكرة لدى طبيب آخر..

وبالفعل بحثتُ عن علاجي لدى طبيب واثنين وثلاثة، لكنني لم أتغير وبقي الحال كما هو، بل وازدادت علاقتي بزوجتي سوءًا..

وفي ليلة أخرجتُ من جيبي تلك الورقة التي أعطاني إياها الدكتور فخري، ومن دون أن أشعر طلبت رقم سمر، فجاءني على الطرف الآخر صوت ساحر لأنثى جذبتني قبل أن أراها..

- ألو مسا الخير..

- مساء النور.. مين معايا؟

- محمود التاجي من طرف الدكتور فخري.

- آه أهلًا محمود بيه، اتأخرت عليَّ كتير..

- نعم يا فندم..

- ماتستغربش، الدكتور فخري صديقي، وكلمني عن حضرتك كتير لدرجة أني طلبت نمرتك..

- نمرتي أنا؟

- أيوه بس للأسف ماسجلتهاش على تليفوني.. أنا مستنياك الليلة في العيادة.. نفس العنوان إللي في الورقة..

لم أدرِ بنفسي إلا وأنا أمام تلك البناية في منطقة العجوزة، التي لم تكن تبعد عن عملي سوى دقائق، فصعدت إلى الشقة رقم 15 وضربت الجرس، ففتحت لي شابة حسناء ساحرة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ..

وجدتُ نفسي في مكان أقرب للعيادة بالفعل، لكن ليس هناك ممرضة ولا مرضى..

- طبعًا حضرتك مندهش من المكان يا محمود بيه؟ من حقك.. بس أنا درست في فرنسا وهناك عندهم مفهوم مختلف خالص عن مفهومنا للطب النفسي..

- أكيد أكيد يا..

يبدو أن الموقف أنساني كل شيء، حتى اسم الدكتورة، التي أطلقت ضحكة أربكتني ثم قالت:

- سمر..

- أيوه طبعًا دكتورة سمر..

- لأ سمر بس.. اعتبرني صاحبتك ولاماينفعش..

- بالعكس.. ده يسعدني طبعًا.

- طيب اتفضل ارتاح.. تحب تشرب إيه؟

- مالوش لزوم يا فندم..

- هههههههههه فندم؟ أنا لسه بقولك نبقى أصحاب.. بص يا محمود ده أهم جزء في العلاج.. أنت مش جاي لعيادة دكتور، إنت جاي تزور واحد صاحبك..

- تقصدي واحدة صاحبتي..

- هههههههههههه صح.. ده أنت مصيبة..

- نعم؟

- هههههههه لا بس بحاول أكسر الحواجز اللي بينا.. يضايقك؟

- والله لو ده هيساعد في العلاج يبقى أكسري براحتك..

تكررت زياراتي إلى سمر، وإن كنت قد بدأت أشعر أنني لا أعاودها من أجل العلاج، بل كي أراها هي، فقد استطاعت هذه «الشيطانة» أن تلهب كل أحاسيسي تجاه المرأة، وكم تخيلت نفسي في سريرها أنهل من رحيق جسدها البض، غير أنني كنت قد قطعت عهدًا على نفسي ألا أغوص في علاقة جسدية مع أخرى غير زوجتي، ومع ذلك لم يسلم الأمر من مناوشات جسدية بعد تحررنا من ملابسنا، عدا الداخلية، إلى جانب اتصال هاتفي بيننا، غالبًا كان ينتهي بعد أن يُبلل سروالي الداخلي!

قررت أن أقطع علاقتي بالدكتورة سمر نهائيًا، وبالفعل انقطعت عن زيارتها لنحو شهر، وتعمدت عدم الرد على اتصالاتها المتكررة، حتى أرسلت لي رسالة على الموبايل تؤكد أنها تريدني في أمر مهم، وأنهتها بالعبارة التالية: «مستنياك يا حافظ»..

هنا تأكدت أن الدكتور فخري حين ناداني باسمي الحقيقي لم يكن ذلك من باب الصدفة كما قال لي، فقررت أن أذهب إلى منزل سمر لأكتشف السر، وبعدما أنهيت عملي في نحو العاشرة والنصف مساء ذهبت إلى هناك..

فتحت لي سمر باب شقتها وهي ترتدي «لانجري» يحرك الحجر، فبادرتها بقولي إنني جئت لأنهي كل شيء..

- وهو إحنا بينا حاجة يا حافظ باشا؟

- طيب ما دام كده هاتي من الآخر بقى.. أنت عايزة مني إيه، وعرفتي اسمي منين؟

- بصراحة كده أنت عاجبني وعايزاك..

- نعم؟

- أيوه.. عايزاك..

- بس أنا متجوز وبحب مراتي جدًا.

- لكن هتموت عليَّ..

لم أجد كلامًا أرد به عليها، فجذبتني إليها وراحت تُقبلني بشكل جنوني، ولوقع المفاجأة عليَّ استجبت لها وغصت في عالمها الساحر، إلى أن

استفقت وأنا بلا ملابس تقريبًا، فدفعتها عني وهي تضحك..

- أنتِ إيه؟ شيطانة؟
- لأ، ملاك..
- لو ماجاوبتيش سؤالي أنا همشي حـالًا.. مين قالك على اسمي الحقيقي؟ فخري!
- فخري ده مجرد دكتور قبض قرشين علشان يجيبك لحد عندي..
- ومين ورا الحكاية؟
- شوف أنت بقى..
- مش قادر أفكر.. مين ردي عليَّ..
- بقولك إيه.. لم هدومك وأخرج حالًا بدل ما أعملك فضيحة وأقول إنك جاي تتهجم عليَّ في شقتي..

لملمت ملابس وارتديتها مسرعًا، قبل أن أفر هربًا وأنا لا أعي شيئًا مما يدور حولي، وحين وصلت منزلي، ورحت أعصر عقلي لعلي أعرف من وراء هذه التمثيلية، ولم أجد أحدًا غير وليد، فليس هناك من يكرهني في هذه الدنيا مثله.

جريمة قتل

دومًا الصباحات تحدد بصلة يومك.. وما حدث ذاك الصباح كان كفيلًا بأن أتأكد أنه يوم غير عادي، وحتمًا سيكون حافلًا بالمفاجآت التي أتمنى أن تكون سعيدة، مع أني أشك في ذلك..

بدأ اليوم بفزع، إذ استيقظت على صراخ منى، فنهضت مسرعًا لأستطلع الأمر..

كان صوتها يأتيني من غرفة والدها، وحين دخلت وجدتها تجلس على سريره ورأسه في حجرها، وفور أن رأتني صرخت:

- بابا مات يا حافظ.. بابا مات!

أسقط في يدي، وشلتني الدهشة، فرحتُ أقلب الرجل ذات اليمين وذات الشمال، غير أنه كان بالفعل قد فارق الحياة.

لم نكد ننتهي من إجراءات دفن حماي، حتي فوجئت في المساء، وخلال عزاء الرجل، بشخص حاد الملامح، شاربه يعلن عن مهنته.

- البقاء لله يا أستاذ حافظ..
- ونعم بالله يا فندم.. اتفضل حضرتك..
- لا معلش أنا عاوزك معايا..
- نعم؟ مع حضرتك فين.. وحضرتك مين ولا مؤاخذة؟
- الرائد شريف صبري من مباحث العجوزة..
- طيب وحضرتك عايزني في إيه؟ زي ما أنت شايف كده يا فندم ده عزا حماي..
- أنت متهم في جريمة قتل..
- قتل إيه سيادتك! حماي مات في المستشفى على إيدين الدكاترة ومفيش أي شبهة جنائية..
- لا ما هو القتيل مش حماك..

في هدوء خرجت مع الضابط إلى «البوكس» الذي أقلنا إلى قسم الشرطة، وبعد فتح المحضر عرفت أنني متهم بقتل الدكتورة سمر..

أخبرني الضابط أنهم وجدوها مقتولة بالرصاص في شقتها، وأن فحص الطبي الشرعي وجد آثارًا من سائل منوي بالجثة، وأنني المتهم الأول بعدما عثروا على جهاز الكمبيوتر الخاص بها مقاطع مصورة للقاءات جنسية تجمعني والدكتورة سمر، كما وجدوا على هاتفها رسالة بعثتها لي تهددني فيها بكشف أمر ما إن لم أذهب لمقابلتها..

كل هذه القرائن، فضلًا عن التحليل الذي أثبت أن السائل المنوي على جثة سمر لي، يؤكد أنني أنا القاتل.

وهكذا أصبحت متهمًا بالقتل..

لم أجد شيئًا أدفع به التهمة عني، فأنا شخصيًا لو قدمت لي كل هذه الأدلة لحكمت على المتهم بالشنق دون رحمة.. إنها جريمة محبوكة، رسمت خيوطها بعناية فتشابكت حول رقبتي ولا مفر!

4X4...

مسكينة منى زوجتي فقدت أبيها، ثم زوجها المتهم بالقتل، ورغم أنها تماسكت وحاولت مساعدتي في شدتي هذه فور علمها بالقبض عليَّ، فإنها سرعان ما تخلت عني وانهارت عندما علمت بأمر العلاقة بيني وبين القتيلة، ففقدت صوابها ووعيها ودخلت أحد المستشفيات.

أما أنا فدخلتُ عالمًا غريبًا ليس لي به سابق معرفة.. إنها حجرة الحجز.

غرفة مساحتها 4 في 4 أمتار تحوي أكثر من عشرين شخصًا كل واحد منهم يضع رأسه في حِجر الآخر ويفترش الأرض نائمًا، بينما جدران الغرفة مكدسة بالمسامير التي تحمل «شنطا بلاستيكية»، وأعقاب السجائر تغطي المساحة الظاهرة من الأرض هنا وهناك، بينما رائحة البول المتصاعدة من «جردل» بإحدى الزوايا تعبق المكان ذا الإضاءة الخافتة..

سعلتُ فور دخولي الغرفة مدفوعًا من العسكري، فضج الحاضرون بالضحك..

- ده باينه وارد جديد بس خيخة قوي..

هكذا تحدث أحدهم، وهو يضحك لتنكشف بقايا أسنان محطمة في فم مظلم أشبه بالمغارة.

- قوم قلبه ياض يا حتة..

- أوامرك يا أفندينا..

- فهمت من هذا الحوار بين «حتة» وأفندينا أنني المقصود، فضلًا عن أن أفندينا هذا هو كبير اللمة..

حاولت المقاومة كي أمنع حتة هذا من «تقليبي» ولما لكمته «بالبوكس» في خده الأيمن نهض ثلاثة رجال ولا أتذكر الآن شيئًا سوى أنني استفقت بعد فترة لأجدني ملقى في إحدى زاوايا الغرفة والدم المتخثر يشد وجهي وأنحاء متفرقة من جسدي.

لم يكسبني الأنين أي تعاطف من سكان الغرفة، إذ بادر أحدهم بسحبي من قدمي إلى أن وصلت قرب أفندينا..

- ولما أنت خرع كده عامل فيها بطل ليه؟

- أنتو عايزين مني إيه؟

- اخرس ياض.. مش عايز أسمع صوتك لحد ما تغور من هنا..

لم أنطق بحرف، فقد كنت متيقنًا من أن أي كلمة أتفوه بها لن يكون ردها باللسان، بل بكفوف وأقدام تصفع وتركل..

كنت مستعدًا لأن أقضي الأيام المتبقية لي في هذه الغرفة دون أن أفتح فمي، غير أن حاجتي للتبول أجبرتني على الاقتراب من أفندينا، فطلبتُ

وأخبرته عن حاجتي لإفراغ مثانتي الحبلى بالماء، فأرشدني إلى أن هذا الجردل هو الوسيلة الوحيدة لذلك، كما أمرني أن أجلس إلى جواره فور انتهائي من التبول..

- اسمك إيه؟
- حافظ..
- ياه دا أنت قديم قوي.. يابني الأسامي دي اتلغت من سنة عشرين..

ضحك كل من في الغرفة.. ليس إعجابًا بقفشة المعلم أفندينا، بل مجاملة له وطلبًا لرضاه.. حتى أنا فعلت ذلك اتقاءً لغضبه..

- معلش يا باشا ما أنت عارف محدش بيختار اسمه..
- صح ياض.. وصنعتك إيه؟
- مدير شركة..
- يا صلاة النبي يا صلاة النبي.. مدير شركة مرة واحدة..
- أه والله يا معلم..
- طب وإيه رماك الرمية السودة دي..

مجبرًا، رويت لأفندينا حكايتي، ورب ضارة نافعة إذ وجدت تعاطفًا من هذا الرجل الذي أقسم أنه يصدق كل كلمة قلتها ويؤمن ببراءتي..

وهكذا دون حول مني، بت في حماية أفندينا..

وامتدت حماية أفندينا لي لمساحة أخرى، إذ كنت وقتها دون سند ولم يكن معي مالًا اشتري به طعامًا أو شرابًا في غرفة الحجز، فتولى الرجل إعاشتي من جيبه الخاص، ولما وعدته بتسديد الدين وزيادة فور اتصالي

بزوجتي أو أي أحد من معارفي، بصق في وجهي وصرخ مؤكدًا أنه لا يفعل ذلك إلا من باب الإنسانية!

في هذه الفترة لم أكن أعرف شيئا عن زوجتي، إلى أن تواصلت مع أحد موظفي المجموعة، فأحضر لي مالًا وثيابًا وطعامًا، ثم أخبرني أن منى ما زالت في المستشفى تتلقى العلاج وأنها مصابة بصدمة عصبية حادة ولا تعي شيئًا.

وقبل موعد استدعائي أمام النيابة، نصحني أفندينا بالبحث عن الأشخاص الذين أشك أن لهم علاقة بما حدث لي، ولما أخبرته أنني لم أؤذي أحدًا في حياتي، قال إن «الكويس أعداؤه أكتر من ابن الكلب»..

قائمة الأعداء

استدعتني النيابة، فأخرجوني من غرفة الحجز لمكتب وكيل النيابة، وكان رجلًا لطيفًا للغاية.. عاملني باحترام، وقال لي إن كل الأدلة تذهب إلى أنني القاتل، فأقسمت له أنني بريء، فكرر عليَّ سؤال أفندينا..

– طيب تفتكر مين القاتل؟ ومين عاوزك أنت «تلبس» الحكاية؟

– يا فندم أنا راجل في حالي وماليش أعداء..

– يا حافظ أنت على نياتك قوي.. أنا والله مش عارف ليه متعاطف معاك وحاسس فعلًا أنك بريء! بس بصراحة مفيش حاجة في إيدي أعملها.. ماقدميش غير أني أخذ بالأدلة والبراهين والورق.. أما فكرة أنك مالكش أعداء دي فهي المصيبة.. أنت منين أصلا يا حافظ..

– قرية صغيرة في الجيزة، بعد حلوان بشوية..

– ماتأخذنيش بس لازم أقولك أنك ماكنش لازم تسيب بلدكم..

– مش فاهم..

– ما هي دي القضية أنت «حافظ مش فاهم».. معلش سامحني، لكن

يا بني العيشة بين الناس عايزة الواحد يشك في الكل ويتعامل بخبث مش بطيبة كده..

- ودي تبقى عيشة؟

- هي كده الدنيا يا تعيش تعلب يا إما تستحمل بقى اللي يجرالك.. فكر مين ممكن يكون ورا الحكاية؟ مين بيكرهك للدرجة دي..

- هو يعني لو لازم ولا بد يبقى مفيش غيره..

- مين؟

- وليد ابن عم مراتي.. كان عايز يتجوزها وطول الوقت بعتبرني أخدت حقه ومكانه في شركات عمه وشايفني ماستاهلش..

- طيب تحب نستدعيه رسميا ونواجه؟ بس خد بالك مجرد الاتهام مش كفاية لازم يكون عندك دليل ضده..

أمام وكيل النيابة، أنكر وليد أي علاقة له بالجريمة، وطلب دليلًا واحدًا يُثبت أن له صلة بالأمر، ولما قلت إنني لمحت سيارته في أحد الأيام بالقرب من البناية التي تسكن فيها سمر، قال إنه له حساب في البنك الذي يحتل مساحة من هذه البناية، وإنه من الطبيعي أن يتردد عليه من وقت لآخر.

وهكذا انتهى الأمر ولم يوجه أي اتهام لوليد، إلى أن استدعيت للنيابة مرة أخرى، وقال لي وكيل النيابة إنهم اكتشفوا وجود اتصالات هاتفية بين وليد وسمر في الفترة التي سبقت مقتلها، لكنه أكد أن ذلك يضع غريمي في دائرة الاشتباه، لكن ليست هناك أدلة..

وخلال مواجهتي الثانية مع وليد في النيابة، أثبت أنه في الفترة من الحادية عشر مساء إلى الثانية صباحًا من ليل يومي الأحد والإثنين، في شهر أكتوبر، كان بالشركة، واستشهد بساعة الحضور والانصراف الإلكترونية الخاصة بالشركة.

وبالفعل أثبتت «الساعة الإلكترونية» صدق كلامه.

وبعدما غادر وليد المكتب، قال وكيل النيابة إنه رغم تعاطفي معه وشكه في كلام وليد، فإنه مضطر لتوجيه الاتهام لي رسميا بقتل سمر ورفع الأمر للقضاء، فامتثلت للأمر وعدت لغرفة الحجز تمهيدا لانتقالي لمرحلة أخرى، تيقنت أنها ستكون محطتي الأخيرة قبل ارتداء البدلة الحمراء.

محكمة

استفاقت منى أخيرًا، وراحت تتجاوز أحزانها، فجاءت لزيارتي في الحجز قبل ترحيلي لأحد السجون، فأقسمت لها أنني بريء من قتل سمر، فأقسمت هي أنها تؤمن ببراءتي، لكنها قالت إن صدمتها فيَّ أكبر من جريمة قتل، فكيف لي أن أُقيم علاقة مع امرأة غيرها، وهي من أعطتني كل شيء وأحبتني كما لم تحب جولييت روميو ولا عبلة وحبها لعنتر.

عجزت عن الرد، ولم تكن لديَّ القدرة على أن أشرح لها مأساتي، وكيف أنني لم أستطع مقاومة إغراءات سمر، خاصة أنني تربيتُ على أن الجنس حرام وليس هناك فيه من متعة إن لم يرتبط بالحرام!

ولأنها ابنة أصول، ظلت منى إلى جواري، وتولت إرسال الأموال والطعام لي، وكذلك مختلف احتياجاتي داخل حجرة الحجز بالقسم، وهو الأمر الذي فاض عن حاجتي فكنتُ أوزعه على زملائي هناك، وعلى رأسهم أفندينا.

- اللي مجنني يا حافظ أنك بتصدق أي حد..

- قصدك إيه يا أفندينا..
- يعني الزفت وليد ده قال إنه كان في الشركة ساعة وقوع الجريمة تقوم أنت تصدقه!
- ما هو يا أفندينا ساعة الشركة أثبتت أنه بصم الساعة حداشر وهو داخل الشركة وبرضو بصم الساعة اتنين وهو خارج..
- طيب ما هو ممكن يكون خرج في الوقت ده نفذ جريمته ورجع تاني..
- لأ يا معلم الكاميرات صورته وهو فعلًا في الشركة طول الفترة دي..
- عجيبة.. طيب ده راجل مدير يمضي ليه وهو داخل وخارج!

لقد أضاء أفندينا مساحات في عقلي كانت مظلمة.. الرجل يشك في كل شيء ويفكر، فلماذا أنا هكذا أقبل الأشياء كما هي؟

كل شيء في هذه الدنيا ممكن.. لكن كيف؟ وليد بالفعل كان بالشركة في الفترة التي ارتكبت فيها الجريمة، فهل استأجر آخر لينفذ المهمة!

وعلى الجانب الآخر، لم أستطع إثبات أنني غادرت شقة سمر في الساعة الحادية عشر مساء، فحتى البواب لم يكن أمام بوابة البناية ساعة رحيلي، هو شاهدني فقط وأنا أدخل لكنه لم يراني وأنا أرحل..

جلست ساعات وساعات قبل ترحيلي للسجن أفكر في الأمر وأقلبه عليّ أجد مخرجًا، لكن هيهات، فعقلي كسول لا يمكنه تجميع التفاصيل الصغيرة ليصنع منها صورة كبيرة تضم المشهد كله.

ظل الحال هكذا حتى جاء موعد المحاكمة..

- محكمة..

صرخ الحاجب مع دخول القضاة للقاعة، فوقف الجميع، فجلس القضاة وبدأت المحاكمة..

كانت منى قد اتفقت مع محامٍ كبير للدفاع عني، فطلب من المحكمة التأجيل لأنه لم يتطلع على أوراق القضية بشكل كامل، وقدم قائمة بأسماء شهود يريد إحضارهم في الجلسة التالية، ضمت الدكتور فخري وبواب البناية التي كانت تسكن بها سمر ووليد..

وبعد رفع الجلسة تحدثُ إلى المحامي وأخبرني أن موقفي ضعيف للغاية، وطلب مني أن أعصف ذهني وأن أُدون أي ملاحظة مهما كانت صغيرة فربما ساعدت في الوصول للغز الجريمة.

وفي السجن الاحتياطي، زارني أحد صبيان أفندينا وأحضر لي طعامًا في ورقة من جريدة، فشكرته وطلبت منه أن يبلغ المعلم شكري وسلامي.

لم تكن لي رغبة في تناول شيء، ففكرت في أن أعطي لفة الطعام لأحد المساجين بالعنبر الذي احتجزتُ فيه، غير أنني تراجعت ورحت أطالع خبرًا في ورقة الجريدة الذي كان عنوانه: «غدًا بداية التوقيت الصيفي»، بينما تقول تفاصيل الخبر «قالت مصادر مطلعة لـ(اليوم السابع)، إن مجلس الوزراء قرر العمل بالتوقيت الشتوي بداية من يوم ٣٠ أكتوبر الجاري».

لا أعرف كيف قفز إلى ذهني هذا الربط بين التوقيت الشتوي ومقتل سمر وتوقيع وليد في ساعة الحضور والانصراف!

وفي الجلسة التالية قلت للمحامي إنني أريد أن أتحدث في المحكمة، فطلب أن يعرف ماذا أريد أن أقول، لكنني رفضت، فأبدى استياءه لكنه وعدني أن ينقل رغبتي للقاضي.

بدأت الجلسة باستجواب الدكتور فخري، الذي نفى علاقته بالأمر، وقال إنني ترددت عليه من أجل العلاج لكني انقطعت فجأة، فصرخت أنه يكذب وأقسمت أنه من أعطاني رقم هاتف سمر، فهددني القاضي إن تحدثت مرة أخرى دون إذن منه.

أما البواب فقال إنه شاهدني أدخل البناية قاصدًا شقة سمر، وإنه لم يراني عندما رحلتُ، متعللًا أن ذلك ربما حدث وهو يقضي حاجة لأحد السكان، ثم أنهى شهادته وجلس في مكانه.

وحين بدأ المحامي في استجواب وليد، طلبتُ من القاضي أن أتحدث، فقال إن لي محاميًا وهو من سوف يتولى الدفاع عني، لكنني توسلت له أن يسمع لي وأنني لن أتحدث ثانية، فأذن لي:

– يا فندم وليد كداب بيقول إنه كان في الشركة من الساعة 11 مساء لحد 2 الصبح، وإنه بكده مالوش علاقة بالجريمة اللي تمت ما بين 11 وربع إلى 11 ونص..

– طيب وإيه دليلك على كدبه مع العلم أن ساعة الشركة والكاميرات أكدت صدق كلامه!

– ما هي الحكاية في الساعة يا فندم..

– وضح مش فاهم..

- الجريمة وقعت ليلة تغيير الساعة من التوقيت الصيفي للشتوي، يعني الساعات اتأخرت 60 دقيقة، وفي اليوم ده الساعة رجعت من 12 بعد نص الليل لـ11 مساء، وبكده وليد ممكن يكون راح قتل سمر وبعدها راح الشركة بعد الساعة 12 لما بقت 11 في الساعة اللي متظبطة على التوقيت الصيفي والشتوي..

صرخ وليد واتهمني بالكذب، فسأله القاضي إذا ما كان معتادًا على تسجيل حضوره وانصرافه في ساعة الشركة، فقال إنه بالفعل يحرص على التوقيع ليكون قدوة لباقي الموظفين، وهنا طلب المحامي أن يستدعي الموظف المسئول عن تلك الساعة، وأن يحصل على تفريغ للشهرين الماضيين، ليتبين إذا كان وليد حريصًا على إثبات حضوره وانصرافه من خلال الساعة أم لا..

وهنا انفعل وليد وقال:

- يا فندم حتى لو أنا مابسجلش حضوري وانصرافي ده مش دليل على أني قتلت، أنا أصلًا ماعرفش الست دي..

وقبل أن يُكمل كلامه، وقف البواب وصرخ:

- يا سعادة القاضي الراجل ده بيكدب..

قالها هو يشير إلى وليد ثم أكمل:

- الراجل ده زار المرحومة أكتر من مرة..

- طيب شوفته ليلة الحادث؟

- أيوه.

- الساعة كام تقريبا؟

- بعد الساعة 11، بس مش عارف كام بالظبط..

صرخ وليد مُكذبًا البواب، فأمره القاضي بالصمت وإلا أمر بحبسه، ثم سأل القاضي البواب مرة أخرى.

- وعرفت منين أنها كانت 11، أنت متعود تبص في الساعة لما حد يدخل العمارة؟

- لأ يا بيه، بس أنا متعود أسمع التمثيلية بتاعة الساعة 11 في الراديو، وكنت ساعتها لسه خارج من دورة الميه في أوضتي وعملت كوباية شاي علشان أشربها وأنا بسمع التمثيلية قدام باب العمارة.. قوم شوفت الأستاذ ده وهو طالع عند المرحومة..

- وأنت متأكد أنه كان طالع عند سمر؟

- أيوه يا باشا هو جه زارها أكتر من مرة، وهي الله يرحمها خرجت معاه في عربيته أكتر من مرة.

- هاه إيه رأيك يا وليد.. عندك رد..

انهار وليد وراح يُدلي باعترافاته أمام القاضي، فقال إنه اتفق مع الدكتور فخري على توريطي في قتل سمر، تلك الجريمة التي رتب لها جيدًا، فأوعز لفخري أن يخبرني أنه لا علاج لي سوى لدى سمر، التي اتفق معها وليد على أن تورطني في مشاهد جنسية كي يفضحني أمام منى لتطلب مني الطلاق ويطردني والدها من العمل، فيخلو له الجو ويفوز بكل شيء..

وكشف أن خلافًا نشب بينه وبين سمر حول الثمن الذي ستتقاضاه نظير عملها هذا، فقرر أن يقتلها ورتب للأمر كي أُتهم أنا بالجريمة، فيتخلص مني ومن سمر بضربة واحدة.

وهكذا أصبحتُ مدينًا لعقلي، بعدما جعله الله سببًا في إثبات براءتي.. لقد نجوتُ حين فكرت..

العلم نور.. أو شوقية

بعدما أُفرج عني، رفضت العودة إلى منزل منى زوجتي، التي عرضت عليَّ أن نفتح صفحة جديدة وأن ننسى كل ما حدث، لكنني وجدت أنه من الصعب أن أعيش في حضن امرأة خنتها مع أخرى، كما أنني تيقنت أن هذه ليست دنياي، فانفصلت عن منى في هدوء، بعدما تعهدت أن أبقى لها الصديق الوفي..

وفي القاهرة عانيت كثيرًا وأنا أبحث عن عمل بعدما تركت منى وشركات أبيها، وكان معي مبلغ جيد جمعته من عملي السابق، فقد كنت أتقاضى أجرًا ضخمًا بينما لم تكن لديَّ مصاريف تُذكر، إذ كنت أعيش في عز حماي رحمة الله عليه..

لم يبقَ الحال كما هو عليه كثيرًا، إذ اتخذت أهم قرار في حياتي..

لقد قررت أن أعود إلى مسقط رأسي.. قريتنا الصغيرة بكل ما فيها، وأقمت في منزل أسرتي المغلق منذ وفاة أبي وأمي، اللذان رحلا عن الدنيا واحدًا تلو الآخر وأنا مشغول بدنياي..

أما عن العمل، فعدتُ للتدريس بالمدرسة الإعدادية، التي لم تتغير كثيرًا عما قبل، فها هم طلابها يتعاطون المعلومات كما العادة ويستفرغونها آخر العام في ورقة تُقاس فيها الإجابات بالشبر!

عينتُ مدرسًا للغة الإنجليزية، التي لم أُدرسها لطلابي إلا آخر العام، فقد حرصتُ أولًا على تعليمهم اللغة العربية بشكل جيد، غير مبالٍ باعتراضات الناظر ولا أولياء الأمور..

ومن العجب أن تلاميذ الفصول التي كنت أُدرس فيها، تحسنت حالتهم وباتوا طلابًا لهم عقول تختبر الأمور قبل تصديقها، فنجحوا بتفوق ملحوظ، وهو الأمر الذي فتح لي باب الدروس الخصوصية، إذ كان الناس يأتون بأبنائهم لي لأعطيهم دروسًا، فافتتحت مركزًا أُعلم فيه أبناء القرية العربية والإنجليزية وبعضًا من العلوم الأخرى، إلى أن جاءت لجنة من المركز وأمرت بإغلاقه بدعوى عدم حصولي على تصاريح رسمية..

خاب أملي فتركت المدرسة، وتزوجتُ «شوقية» فتاة من القرية.. نعم لم تكن على قدر من الجمال إلا أنها يومًا لم تسبب لي إزعاجًا، فقد كنتُ لديها ملك متوج.. طلباتي أوامر.. وكل أحلامي مجابة.. لم تناقشني يومًا في أمر.. ولم تسألني يومًا عن سبب.. فقط افعلي كذا تفعل.. قولي كذا تقول..

وإلى ذلك فقد اشتريت بيتًا جديدًا، لكني لم أسكن فيه، إذ حولته إلى مكتبة لأبناء القرية، وضعت فيها كتبًا من هنا وهناك.. لم تكن لدي

خطة لانتقاء الكتب، فقط كنت أشتري ما قل سعره من مكتبة الأسرة وإصدارات هيئة الكتاب..

في البداية لم تجد المكتبة قبولًا لدى الناس، لكن الأطفال بدأوا يتوافدون عليها عندما علموا أنني أقدم لهم فيها طعامًا وحلوى، ولاقى الأمر مباركة الأهالي، إلى أن باتوا يتوافدون عليها هم وأبناؤهم ليقرأوا ويتسلوا ويحتسون الشاي والقهوة بالمجان..

كان الأمر غريبًا على الناس فيكف يسمحون لأبنائهم بقراءة كتب غير كتب المدرسة، وما الفائدة من مطالعة الجرائد والمجلات، لكنهم سرعان ما اعتادوا الأمر حتى بات جزءًا من حياتهم..

أما أنا فاكتفيت بحياتي البسيطة هذه، وافتتحت سوبر ماركت بما تبقى لي من أموالي التي جمعتها حين كنت مساعدًا للمرحوم حماي، وأصبح لديَّ اليوم ثلاث بنات من «شوقية» زوجتي القروية، التي قرأت معظم الكتب التي كانت بالمكتبة، وباتت تقارعني الحجة بالحجة والكلمة بالكلمة..

هنا ترحمتُ على أيام مضت لم تكن زوجتي تعرف عن الدنيا شيئًا وكانت تطاوعني بشكل مُبالغ فيه، فتمنيتُ لو لم تقرأ وتتفتح مداركها!

تمت

الفهرس

- أما قبل 3
- يوم ما اطاهرت 7
- في الكُتاب 11
- حفلات الضرب الجماعي 15
- جدول الضرب 18
- الحب وسنينه 21
- في بيت ربنا 25
- الاكتشاف اللذيذ 29
- العُهدة 33
- الأشكيف والمكرونة 36
- سين وصاد 39
- أنا هو 41
- خالتي جابت عيل 44
- هاف ديفيندر 47
- دو يو سبيك إنجليش؟ 50

- أميرة حبي أنا 53
- أي حاجة 56
- ممنوع الدخول 60
- راس كرنب 65
- مواطن رسمي 69
- بيحب على نفسه 71
- ضحك السنين 76
- خلي السلاح صاحي 78
- قف للمعلم.. ياض.. 82
- فيلم سيما 89
- الحب الحرام 92
- تيجي مع العُمي ضباش 96
- دكتور الحقني 100
- في شقة سمر 106
- جريمة قتل 111
- 4X4... 114
- قائمة الأعداء 118
- محكمة 121
- العلم نور.. أو شوقية 128